

أصحاب الأثر | ناصر الأندلس

يوسف بن تاشفين



الإهداء

إلى الذين يحملون همّ أمّتهم، ويجعلون لمحبتها نصيباً من
أعمارهم وأعمالهم.

إلى من يبدأ بما في يده، ويصبر على بناء الخير، وإن طال
الطريق وخفي اسمه.

وإلى قارئ هذه السيرة؛ لعلّ موقفاً توقظه هذه الصفحات في
قلبك يصير عزماً، ثم عملاً ينفع الله به، ويبقى لك حين
تنقضي الأيام.

الفهرس

7	المقدمة
11	الفصل الأول كيف نصحب يوسف ونقرأ أخباره
16	الفصل الثاني الصحراء التي خرج منها المثلثون
22	الفصل الثالث المغرب قبل اتساع دولة المرابطين
27	الفصل الرابع الأندلس حين تفرقت كلمتها
33	الفصل الخامس ما وراء القافلة التجارة والذهب ومعاش الناس
38	الفصل السادس يوسف في قومه الاسم والقربة وموقع المسؤولية
42	الفصل السابع سنوات العمر ما تقوله الروايات
44	الفصل الثامن الرجل كما وصفه المؤرخون
47	الفصل التاسع البيت الذي نعرف بعض أسمائه
50	الفصل العاشر سؤال عاد به حاج من سفره
54	الفصل الحادي عشر عبد الله بن ياسين بداية لم تخل من الخلاف

الفهرس

- 59 الفصل الثاني عشر يحيى وأبو بكر قيادة اختبارتها الفتوح والخلاف
- 64 الفصل الثالث عشر في مقدمة الجيش أول المسؤوليات الظاهرة
- 69 الفصل الرابع عشر حين اتجه أبو بكر إلى الصحراء
- 71 الفصل الخامس عشر زينب في أخبار تلك المرحلة
- 73 الفصل السادس عشر يوم في حياة يوسف يوم عاد أبو بكر
- 79 الفصل السابع عشر اتساع الإمارة وتوزيع المسؤولية
- 82 الفصل الثامن عشر مراکش المدينة التي بدأت بالقيام
- 85 الفصل التاسع عشر من فاس إلى أبواب البحر
- 89 الفصل العشرون الجيش صفوف تقاتل وقيادة تجمع
- 94 الفصل الحادي والعشرون المال حق الأخذ ومسؤولية الإنفاق
- 99 الفصل الثاني والعشرون العلماء في مجلس القرار
- 102 الفصل الثالث والعشرون العدل ومسؤولية السلطان

الفهرس

- 105 الفصل الرابع والعشرون حين سقطت طليطلة واقترب الخطر من
إشبيلية
- 112 الفصل الخامس والعشرون استغاثة الأندلس وقرار النجدة مشاوره
قرطبة وموقف المعتمد وجواب يوسف
- 119 الفصل السادس والعشرون تدير العبور الأول من سبتة إلى الجزيرة
الخضراء
- 125 الفصل السابع والعشرون من الجزيرة الخضراء إلى الزلافة كيف
اجتمعت جبهة متفرقة
- 129 الفصل الثامن والعشرون ليلة الموعد الرسالة والحذر وترتيب القوة
- 133 الفصل التاسع والعشرون يوم الزلافة حين تغير اتجاه المعركة
- 139 الفصل الثلاثون بعد الزلافة الغنيمه، النعي، والرجوع
- 142 الفصل الحادي والثلاثون العبور الثاني حصن ليط وما كشفه المعسكر
481هـ
- 147 الفصل الثاني والثلاثون من ليط إلى تغير السياسة
- 151 الفصل الثالث والثلاثون فتوى الغزالي سند لاحق لا إذن سابق
- 155 الفصل الرابع والثلاثون إشبيلية ومحنة المعتمد
- 161 الفصل الخامس والثلاثون بلنسية والحرب التي طالت

الفهرس

168	الفصل السادس والثلاثون حكم على ضفتي البحر
174	الفصل السابع والثلاثون أمير المسلمين
176	الفصل الثامن والثلاثون الصلة ببغداد
178	الفصل التاسع والثلاثون قليل المؤونة في سعة الملك
180	الفصل الأربعون الحلم وما لا يحجوه الثناء
182	الفصل الحادي والأربعون الشجاعة والعمل مع الرجال
184	الفصل الثاني والأربعون أواخر العمر وانتقال العهد
187	الفصل الثالث والأربعون انقضاء الحياة وبقاء العمل
189	الفصل الرابع والأربعون ما بقي من أثره
192	الفصل الخامس والأربعون الأقوال والوصايا المأثورة
202	الفصل السادس والأربعون أقوال المؤرخين في يوسف
208	الفصل السابع والأربعون ماذا خرجت به من هذه القدوة
226	الفصل الثامن والأربعون خاتمة الصحبة
228	المصادر والمراجع

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

انقضى يوم الزلاقة، وبقي أمام يوسف بن تاشفين امتحان آخر. فقد اجتمعت الغنائم، وصار في يد المنتصر مال وسلاح وخيل. يروي ابن خلكان أنه عَفَّ عنها، وآثر بها ملوك الأندلس، وعَرَّفَهُمْ أن مقصوده الغزو لا النهب.¹ عند هذا الموقف نقرب من الرجل: انتهى صخب القتال، وبقي فعلٌ يكشف شيئاً من صاحبه.

ولكي نفهمه، نحتاج أن نرجع معه إلى ما قبل البحر والمعركة. ففي أخبار تأسيس مراکش يروي ابن أبي زرع أنه اشترى موضع المدينة، ونزل بخيام الشعر، وأقام مسجداً ومكاناً لحفظ المال والسلاح، ثم كان يعمل بيده في الطين والبناء مع العاملين.² صورتان من حياة واحدة: يدٌ تشارك في البناء، وقائدٌ يملك ثم يترك. وبينهما طريق طويل يستحق أن نسير فيه، وأن نعرف الرجال والأحداث التي صنعت مراحلهم.

1 ابن خلكان، وفيات الأعيان، 7/117، في إثارة ملوك الأندلس بالغنائم بعد الزلاقة. النص.

2 ابن أبي زرع، روض القرطاس، طبعة 1917، ص 89، خبر تأسيس مراکش والعمل في بناء المسجد. النص.

من وراء اللثام تظهر ملامح حفظتها كتب التراجم: رجل أسمر نحيف، خفيف اللحية، دقيق الصوت.³ ومع تقدم القراءة نتضح ملامح أخرى من أفعاله وصلاته بالناس. نراه في الجماعة التي نشأ أمره فيها، ثم في المسؤولية التي اتسعت بين يديه؛ ونصحب أخباره مع أبي بكر بن عمر، ونصل إلى مراکش ومدن المغرب، ثم نقف على شاطئ البحر وقد أصبحت الأندلس جزءاً من سؤال الغد.⁴

هذا الكتاب دعوة إلى تلك الصحبة. نريد أن يعرف القارئ يوسف قبل أن يحكم على يوسف، وأن يرى كيف نتصل البدايات بما جاء بعدها. نخلف الاسم الذي نحفظه أسئلة عن التكوين، واختيار الرجال، والعلاقة بالعلماء، والمال والعدل، وكيف يحمل الإنسان تبعات القرار حين يتجاوز أثره حياته الخاصة إلى حياة أناس كثيرين.

وتبلغ هذه الأسئلة شدتها حين نعبر معه إلى الأندلس. فالنجدة التي انتهت إلى نصر الزلافة فتحت مرحلة جديدة، ثم جاء حصار ليط وما كشفه من خلاف، وتغيرت العلاقة بملوك الطوائف

3 الذهبي، سير أعلام النبلاء، ترجمة «صاحب الغرب»، وصف الهيئة واللثام. النص.

4 ابن أبي زرع، روض القرطاس، أخبار أبي بكر بن عمر ويوسف؛ وابن الأثير، الكامل، حوادث 479 و484هـ. أخبار المغرب، أخبار الأندلس.

حتى اتجهت إلى ضم ممالكهم.⁵ هنا لا تبقى السيرة في ساحة ينتصر فيها جيش وينهزم آخر؛ تدخل البيوت والمدن، وتصل آثارها إلى من حمل السلاح ومن لم يحمله. ومن أراد أن يفهم القائد، لزمه أن يتابع مسؤوليته بعد ساعة النصر.

ولهذا سيجد القارئ في هذه الصفحات محنة المعتمد بن عباد إلى جانب أخبار الزلافة، وما حفظه المؤرخون من الشئ على يوسف إلى جانب ما أخذوه عليه. فقد جمع الذهبي في ترجمته بين ذكر الحلم والعدل وبين نقد معاملته لابن عباد، وفصل ابن الأثير خبر سقوط إشبيلية وأسر أميرها.⁶ نحفظ لهذه الأخبار مواضعها في السيرة؛ فالعدل في القراءة يعين على معرفة موطن الاقتداء، كما يعين على فهم موطن المؤاخدة.

سنمضي من الصحراء وطرقها إلى نشأة دولة المرابطين، ثم إلى انتقال القيادة واتساع المغرب. وبعد ذلك تعبر بنا الفصول إلى الأندلس: استغاثتها، وإعداد النجدة، وأيام الحرب، وما أعقبها من قرارات. ونعود في خواتيم الكتاب إلى سمات الرجل وأواخر عمره،

5 الحلل الموسية، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة، دار الرشد الحديثة، 1979، ص 66-73، أخبار الجواز الثاني والثالث؛ وابن الأثير، الكامل، حوادث 479 و484هـ. الحلل، الكامل.

6 ابن الأثير، الكامل، حوادث 484هـ، «ذكر ملك أمير المسلمين بلاد الأندلس»؛ والذهبي، ترجمة «صاحب الغرب». النقد منسوب إلى صاحبه، وتفصيل الواقعة في فصل إشبيلية. الكامل، السيرة.

ثم نجمع الأقوال والوصايا المنسوبة إليه، ونفتح للقارئ باباً يصل ما قرأه بما يستطيع أن يعمل به.

وراء السرد مصادره، وإلى جوار الأخبار حواشيها. أبقينا التفصيل الذي يحتاجه التوثيق في موضعه، وجعلنا عناية المتن بما يساعد على رؤية الحدث وفهمه. وإذا اختلفت الروايات في أمر يؤثر في الصورة، ظهر اختلافها بقدر ما يحتاجه القارئ. وحين نقترح معنى نستنبطه من الموقف، يكون المعنى قراءة للخبر، ولا يصير قولاً نضعه على لسان صاحبه.

نرجو أن يخرج القارئ من هذه الصحبة بأكثر من اسم يذكره، أو يوم نصر يعجب به، أن يخرج بعين أبصر بما يحتاجه البناء من صبر، وبقلب أشد حرصاً على أن تبلغ القوة غايتها النافعة، وسؤال صادق عن العمل الذي يقدر عليه. ونسأل الله أن يجعل هذا الكتاب علماً نافعاً، وأن يرزقنا الإنصاف في أخبار من مضوا، والإحسان فيما بقي من أعمارنا.

الفصل الأول كيف نصحب يوسف ونقرأ أخباره

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه.

لا تأتي أهمية يوسف بن تاشفين من انتصار واحد، وإن كان يوم الزلافة أشهر أيامه. ففي ترجمته تجتمع أخبار بناء مراکش، واتساع سلطانه في المغرب، والعبور إلى الأندلس، والحرب مع ألفونسو، وضم ممالك الطوائف، ثم انتقال الأمر إلى ابنه علي. وهذه مسارات متصلة، لكنها لا تحمل حكماً أخلاقياً واحداً على جميع تفاصيلها؛ فالمؤرخ الذي يصفه بالشجاعة والعدل قد ينتقد معاملته للمعتمد بن عباد في الترجمة نفسها.⁷

لهذا تصحب هذه السيرة الرجل في قراراته وعلاقاته، وتترك لكل واقعة نصيبها من النظر. لا تجعل الظفر في الحرب شهادة مسبقة بصواب كل سياسة، ولا تجعل المأخذ على سياسة سبباً لمحو سائر الأعمال. والقارئ أقدر على الانتفاع بسيرة إنسان يرى جهده

7 الذهبي، سير أعلام النبلاء، ترجمة «صاحب الغرب»، ج 19 ص 253-254 في النص الإلكتروني. يجمع الوصف والثناء مع نقد معاملة ابن عباد. النص.

وحدوده معاً؛ أما الصورة التي تزيل كل تعقيد فإنها تترك الإعجاب، وتحجب موضع التعلم.

الخبر وتفسيره

نفرق في القراءة بين ثلاثة أمور: وقوع الحدث، والطريق الذي وصل به خبره، والمعنى الذي نستنبطه منه. فقد يثبت أن جيشاً دخل مدينة، ويبقى الخلاف في يوم الدخول أو كيفية التسليم. وقد ينقل المؤرخ كلاماً يفسر به مقصد السلطان، ولكن تقديمه بعبارة «بلغني» يمنع معاملته معاملة وثيقة كتبها السلطان بيده. وقد تتفق أخبار على أصل المحنة، وتختلف في مقدارها أو في المسؤول المباشر عنها.

ومن أوضح أمثلة ذلك سقوط إشبيلية. يروي المراكشي أخباراً عن تدبير يوسف في الأندلس، ويذكر بعضها على جهة البلاغ؛ ثم يسرد مقاومة المعتمد وما أصاب أسرته. وفي موضع آخر يثني على دفاع المرابطين عن الثغور. إن وجود هذين الوجهين في كتاب واحد يدعونا إلى قراءة السياق كله، وإلى ألا نختار من المصدر مدحه وحده أو ذمه وحده.⁸

8 عبد الواحد المراكشي، المعجب، «نكبة بني عباد»، ثم «رجع الحديث عن دولة المرابطين بالأندلس». يبدأ أحد أخبار التدبير بلفظ «بلغني»، فلا يعامل بوصفه شهادة مباشرة. النص.

وتفصيل النقد موضعه الحاشية ما لم يغير معنى القصة. أما القيد الذي يتوقف عليه فهمها فيبقى مع الخبر: «يروى فلان»، أو «اختلف في التاريخ»، أو «وردت رواية أخرى». بهذه العبارات القصيرة يستطيع القارئ أن يمضي في السرد وهو يعرف مقدار ما تحمله الرواية، دون أن يتحول كل فصل إلى مناقشة اصطلاحية طويلة.

المصادر التي تضيء الطريق

يعيننا البكري في المسالك والممالك على رؤية البيئة التي سبقت ظهور يوسف في واجهة القيادة. فهو يصف طرق الصحراء ومياهها، ويذكر لمتونة وجدالة، ثم يسرد اتصال يحيى بن إبراهيم بأبي عمران الفاسي، واختيار وجاج لعبد الله بن ياسين. وفي روايته أخبار عن الاستجابة للدعوة وأخبار عن مخالفتها؛ ومن ثم لا نخترل البدايات في اجتماع هادئ خال من النزاع.⁹

وفي الكامل في التاريخ مادة غنية عن العبور والحرب وضم المدن. لكنه ليس ميزاناً معصوماً للتواريخ والتفاصيل؛ ولذلك نقابل خبره بما يتاح من روايات أخرى، ولا سيما حيث يجمع حوادث متباعدة في سياق واحد. وعند سقوط إشبيلية يورد خبر الدخول عنوة ثم

9 البكري، المسالك والممالك، «الطريق من وادي درعة في الصحراء إلى بلاد السودان»، ج2 ص858-860 بحسب الترقيم المعروف. بداية الخبر، اختيار ابن ياسين، خبر الخلاف.

يذكر، بصيغة «وقيل»، أنها سلّمت بأمان؛ فلا يجوز جمع الروايتين في مشهد جازم واحد.¹⁰

ويبين ابن خلكان في صدر ترجمة يوسف أنه اختار أخباراً من كتاب المغرب عن سيرة ملك المغرب، وأن اسم مؤلفه لم يقع له. هذه الإفادة نافعة؛ لأنها تكشف طريق النقل ولا تترك القارئ يظن أن صاحب الترجمة شاهد الوقائع بنفسه. كما أنها تذكرنا بأن كثرة الكتب التي تورّد خبراً لا تعني بالضرورة كثرة الشهود المستقلين عليه؛ فقد يرجع بعضها إلى بعض.¹¹

وسنستفيد كذلك من الأخبار الجغرافية والأدبية حين نخدم الحدث. فالمدنية ليست اسماً في قائمة الفتوح، والرسالة ليست زينة لفظية، والشعر قد يحفظ تجربة صاحبه في الأسر أو الفقد. لكن الشاعر حين يبالغ في الثناء أو الرثاء لا يقدم إحصاءً لأحوال مجتمع بأكمله، والرحالة الذي يصف طريقاً في قرن متأخر لا يصف تلقائياً طفولة يوسف في القرن الخامس.

10 ابن الأثير، الكامل في التاريخ، حوادث سنة 484هـ، «ذكر ملك أمير المسلمين بلاد الأندلس التي للمسلمين»، ولا سيما فقرتا الدخول والأمان. النص.

11 ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج 7 ص 112-113، صدر ترجمة يوسف ومصدر نقله. النص،
تمتته.

مجال العبرة

لا تستمد هذه السيرة حكماً شرعياً عاماً من مجرد تصرف سياسي، ولا تنسب إلى صاحبها ما نستنبطه نحن من تجربته. وحين نقف عند المسؤولية أو المشورة أو المال فإننا ننظر في واقعة محددة، ثم نسأل عما يمكن أن يتعلمه القارئ منها. تبقى الفائدة اقتراحاً للنظر والعمل، ويبقى الخبر منسوباً إلى مصدره.

ومن حق القارئ أن يعرف حدود المادة. فأخبار البيت والطفولة ليست في وفرة أخبار السلطان والحرب. ولن تملأ هذه المسافة بمشهد متخيل أو حديث مصنوع أو وصف لما كان يدور في نفس الرجل. يكفيننا أن نصل ما حفظته المصادر من أفعاله وأقواله، وأن نحسن ترتيب السؤال؛ فالمعنى القوي لا يحتاج إلى واقعة مخترعة لكي يظهر.

بهذا نمضي من البيئة إلى التكوين، ومن المسؤولية الأولى إلى بناء الدولة، ثم إلى الأندلس وما وضعته أمام يوسف من خيارات. وفي نهاية الطريق نعود إلى الرجل نفسه: ما الذي بقي من أثره، وأين ينبغي أن يقف الإعجاب لبدأ الفهم؟

الفصل الثاني الصحراء التي خرج منها الملثمون

الماء قبل المسافة

قبل أن ننظر إلى الجيوش التي عبرت البحر، ينبغي أن نرى الطرق التي خرج منها رجالها. يصف البكري المسير من وادي درعة إلى بلاد السودان بمراحل تتعاقب فيها الآبار والمجابات؛ والمجاجة مسافة خالية يقطعها المسافر قبل أن يبلغ الماء التالي. يذكر ماءً بعد يومين أو ثلاثة، ثم مسافة يمتد انقطاع الماء فيها إلى ثمانية أيام. بهذه المقاييس نفهم بعض معنى الارتحال في تلك البيئة: لم تكن معرفة الاتجاه وحدها كافية، بل كانت معرفة الماء جزءاً من إمكان الوصول.¹²

وليست هذه الصفحات وصفاً لرحلة بعينها قام بها يوسف، وإنما هي صورة للطريق في المصدر الجغرافي. وللفرق أثره؛ إذ لا نملك أن ننسب إلى الفتى الذي سيصبح أميراً كل خبر رواه الجغرافي عن قومه. نستطيع، مع ذلك، أن ندرك حجم ما تتطلبه الحياة في

12 البكري، المسالك والممالك، ج 2 ص 857، «الطريق من وادي درعة في الصحراء إلى بلاد السودان». النص.

هذا المجال من إعداد للزاد، ومعرفة للمنازل، وتعاون بين المسافرين. وهذه قراءة في دلالة الطريق، لا حكاية عن طفولة لم تصل تفاصيلها إلينا.

ثم يصل وصف البكري إلى بني لمتونة، فيجعلهم من صنهاجة، ويصفهم بأنهم ظواعن رحالة بين بلاد السودان وبلاد الإسلام. ويذكر أن معاشهم من الأنعام ولحومها وألبانها، وأن الخبز يأتي بعضهم مع التجار. وينبغي أن يحمل هذا الوصف على الجماعة والمجال اللذين يتحدث عنهما؛ فهو لا ينفي وجود زراعة أو عمران في جميع نواحي الصحراء، كما لا يصف كل فرد بالصفة نفسها.¹³

من هنا يبدأ تصحيح صورة شائعة: الصحراء ليست فراغاً لا بشر فيه حتى يأتيها بطل فيملأها، وليست كذلك مدرسة تمنح كل من عاش فيها فضيلة واحدة. إنها بيئة فيها معاش وتجارة وسلطة وخلاف. وحين تظهر حركة المرابطين فإنها تتحرك بين جماعات موجودة، لها رؤساؤها ومصالحها، ويكون عليها أن تكسب الانقياد أو تواجه الرفض.

13 البكري، المسالك والممالك، ج 2 ص 857، وصف بني لمتونة ومعاشهم. هذا وصف للجماعة في روايته، لا سيرة شخصية ليوسف. النص.

جماعات تتصل وتختلف

يذكر البكري لمتونة، ثم يذكر جدالة مجاورين للبحر، ويصل خبرهم يحيى بن إبراهيم الذي عاد من الحج يريد معلماً لقومه. وبعد ذلك يرد اسم يحيى بن عمر في القيادة، واسم أبي بكر بن عمر في جيش درعة. فالأسماء التي ستظهر في قصة يوسف ليست أسماء أفراد منفصلين عن مجتمعهم؛ وراءها قرابات وجماعات ومسؤوليات تتوزع.¹⁴

غير أن الاشتراك في الأصل لا يعني دوام الاتفاق. ففي رواية البكري أن بني جدالة خالفوا عبد الله بن ياسين وذهبوا إلى ساحل البحر، وأن يحيى بن عمر تحصن بجبل لمتونة، ثم قتل في القتال. هذه أخبار تكشف أن الطريق إلى الاجتماع مر بخلافات حادة، وأن التحالف لا يفهم بمجرد رسم شجرة للقبائل.¹⁵

ويذكر المصدر نفسه انتقال الحركة إلى لمطة وطلبها قسطاً من الأموال وفق حكم نسبه إلى ابن ياسين. لا نحول هذه الرواية إلى فتوى نتبناها، وإنما نقرأها بوصفها خبراً عن الكيفية التي تصور بها الراوي توسع الدعوة وسلطتها. ففي تاريخ الجماعات الناشئة يتداخل

14 البكري، المسالك والممالك، ج 2 ص 858-859 و862. جدالة ويحيى بن إبراهيم، يحيى بن عمر، أبو بكر بدرعة.

15 البكري، المسالك والممالك، ج 2 ص 861-862. الخلاف والتحصن، مقتل يحيى.

التعليم بالقيادة وبإدارة الأموال؛ وقد يختلف الناس في الأمر الواحد من هذه الأمور فيتغير مسار الاجتماع كله.¹⁶

أما مسالك القوافل وما تقتضيه من خبرة فنعرف منها هنا القدر الذي يبينه البكري في وصف المنازل والماء. ولا يصح نقل أوصاف أدلاء مسوفة في رحلة ابن بطوطة المتأخرة إلى القرن الخامس على أنها مشهد من حياة يوسف. يكفي أن نرى تفاوت المسافات بين موارد الماء لندرك أهمية المعرفة بالطريق، دون أن نصنع من ذلك احتكاراً لقبيلة بعينها أو نزعاً أن قافلة لم تكن تستطيع العبور إلا بإذنها.¹⁷

الثام ووصف الرجل

عرف يوسف وجيشه بالثام؛ يذكره الذهبي صراحة في ترجمته، كما يسميه ابن خلكان ملك المثلثين. وهذا هو القدر الذي نعتمده في رسم هيئته. أما تعيين لون القماش على الدوام، أو وصف

16 البكري، المسالك والممالك، ج 2 ص 860، خبر لمطة والأموال. الحكم منسوب في الرواية إلى ابن ياسين، ولا يقرره هذا الكتاب حكماً شرعياً. النص.

17 أصل وصف المنازل والماء في البكري، المسالك والممالك، ج 2 ص 857. لم ينسب في المتن هذا الوصف إلى رحلة شخصية ليوسف، ولم تعتمد أخبار ابن بطوطة المتأخرة لإثبات حال القرن الخامس. النص.

حركة العينين خلفه، أو رد العادة إلى سبب طبي محدد، فليس في هذين الشاهدين ما يثبت¹⁸.

لذلك يبقى اللثام في هذه السيرة علامة وصفها المؤرخون، ولا يصبح باباً إلى قراءة النفوس. قد يشد القارئ منظره، لكن معرفة صاحبه تحتاج إلى أفعاله: كيف قبل المسؤولية، وكيف عامل من شاركوه الأمر، وكيف تصرف بعد النصر. فالمظهر يفتح باب التعرف، ولا يغني عن متابعة الحياة.

مدينة عند طرف الطريق

في الطرف الشمالي من هذا العالم تقوم سجلماسة. يصف البكري أرباضها ومبانيها وساتينها وسورها، ثم يذكر النهر الذي يتشعب عندها، وكثرة النخيل والأعناب وسقي الزروع. وبهذا الوصف تظهر المدينة موضع إقامة وإنتاج، إلى جانب صلتها بالطريق الصحراوي؛ فلا تختزل في مستودع للذهب ولا في محطة عسكرية¹⁹.

18 الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج 19 ص 253-254، «صاحب الغرب»: «وهو وجيشه ملازمون للثام الضيق». النص. وابن خلكان، وفيات الأعيان، ج 7 ص 112: الترجمة.

19 البكري، المسالك والممالك، ج 2 ص 835-836. بناء سجلماسة، النهر والزراعة.

وفي الجنوب يذكر أودغست وما يتجهز به إليها من النحاس والثياب المصبغة، وما يجلب منها من الذهب والعنبر. هذه السلع تكشف اتجاهين للتبادل: ما يصل من جهة، وما يخرج إلى جهة أخرى. وليس ضرورياً أن نعرف حساب كل قافلة كي نرى أن الطريق يصل بين حاجات مختلفة، وأن تعطله يصيب أطرافاً تتجاوز المكان الذي وقع فيه القتال.²⁰

وعندما نقرأ بعد ذلك دخول المرابطين سجلماسة، فإننا نقرأ انتقال مدينة مأهولة لها أسواق ومصالح من سلطة إلى أخرى. القوة التي تدخلها تحتاج إلى ما بعد الظفر: من يبقى لحفظها؟ وكيف تكون صلته بأهلها؟ وماذا يحدث إن نقضوا طاعته؟ سيرد في خبر البكري أنهم خلفوا فيها جماعة، ثم قتل أهلها عدداً منهم بعد رحيل الجيش. وهذا التفصيل المبكر سيعيد أمامنا سؤالاً يرافق السيرة كلها: كيف يتحول الدخول العسكري إلى استقرار يدوم؟²¹

هذه هي الأرض التي تسبق ظهور يوسف: طرق تحتاج إلى معرفة، وقبائل تختلف، ومدن لا تختزل في أسوارها. وستبقى هذه الخلفية حاضرة حين ننتقل إلى مجلس الأمير ومعسكره.

20 البكري، المسالك والممالك، ج 2 ص 850، «ذكر مدينة أودغست»، السلع الواردة والصادرة. النص.

21 البكري، المسالك والممالك، ج 2 ص 861، خبر دخول سجلماسة وما جرى للجماعة المتخلفة فيها. النص.

الفصل الثالث المغرب قبل اتساع دولة المرابطين

سلطان يتغير

حين يصف ابن خلكان الطريق الذي سبق صعود يوسف، ينقل من المغرب عن سيرة ملك المغرب أن ولاية من زناتة كانوا يحكمون بلاداً انتقل سلطانها إلى المثلثين، وأن أبا بكر بن عمر قدم من جهة الجنوب ثم استخلف يوسف. هذا الخبر يرسم انتقالاً في القيادة، لكنه يختصر زمناً واسعاً في أسطر؛ ومن ثم لا يكفي وحده لتعيين تاريخ سقوط كل مدينة أو صورة الحكم في كل إقليم.²²

تبدأ المسألة من هذا التفاوت بين خريطة السلطان وحياة الناس. فقد تُتغير الأسماء التي تذكر في الخطبة، وتظل المدينة بحاجة إلى من يحفظ طريقها وأسواقها ومياهها. وقد يستطيع الجيش أن يهزم قوة مقابلة، ثم يجد أن الإقامة بين أهل البلد تتطلب عملاً آخر. إن

22 ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج 7 ص 113، نقلاً عن المغرب عن سيرة ملك المغرب؛ وصف انتقال السلطان من ولاية زناتة إلى المثلثين. لا يسند الموضوع تقسيم الأحلاف السابق بين الفاطميين والأمويين. النص.

بناء الحكم أوسع من لحظة الفتح، وسيكون يوسف معنياً بهذا العمل حين يتسع ما يتولاه.

ولا نحتاج إلى وصف المغرب كله بأنه خراب محض كي نفهم الحاجة إلى الاستقرار. ففي جغرافية البكري صورة لسجلماسة ذات الأرباض والبساتين والنهر، وفي أخبار الحركة المرابطية صورة للنزاع على المدينة نفسها. تجتمع في المكان حياة منتجة وصراع على السلطة؛ وهما أمران يمكن أن يقعا معاً، فلا يحو أحدهما الآخر.²³

سجلماسة بين دخولين

يذكر البكري أن المرابطين خاطبوا أهل سجلماسة ورئيسهم مسعود بن وانودين، ثم حاربوهم بعد عدم الإجابة إلى ما أرادوا. قتل مسعود، ودخلوا المدينة، وخلفوا فيها جماعة ورجعوا. وبعد ذلك قتل أهل سجلماسة عدداً من الجماعة المتخلفة، ثم تواترت رسلهم يطلبون عودة العسكر لما زحفت إليهم زناتة.²⁴

تغيرت مواقف المدينة في هذا الخبر أكثر من مرة. وهذا التغير يمنع تصور الناس كتلة واحدة تنتظر جيشاً بعينه من غير تردد أو نزاع. وفيه أيضاً ما يبين أثر الغياب: القوة التي تغادر مكاناً لا تأخذ

23 البكري، المسالك والممالك، ج 2 ص 835-836، وصف سجلماسة. النص، تمتته.

24 البكري، المسالك والممالك، ج 2 ص 861، خبر مسعود بن وانودين وسجلماسة. النص، النص.

معها تبعات دخولها، بل تترك رجالاً والتزامات ومصالح. فإن لم يستقر ما بينهم وبين أهل البلد عاد النزاع سريعاً.

ويضع البكري هذه الأحداث في سياق خلاف داخل الجماعة المرابطية نفسها؛ فعندما ندب ابن ياسين الناس إلى القتال مرة أخرى خالفه بنو جدالة. فليست جبهة الداخل محصنة دائماً من أثر حركة الخارج. ومن هذا التعقيد نفهم لماذا تتكرر في السيرة مسألة الاستخلاف وتوزيع الرجال: لا يستطيع القائد أن يكون في الصحراء وفي المدن الشمالية وفي الأندلس في وقت واحد.²⁵

الجوار الإفريقي

إلى الشرق كانت علاقة المعز بن باديس بالخلافة الفاطمية تمر بقطيعة. ينسب ابن الأثير قطع الخطبة للمستنصر والخطبة للقائم العباسي إلى سنة 440هـ، ثم يشرح إرسال جماعات من العرب نحو إفريقية وما تبع ذلك من قتال واضطراب. أما ورود سنة 443هـ في أخبار أخرى فلا يميز نسبتها إلى هذا الموضع من الكامل؛ والقدر الذي يهمننا هنا أن المجال الذي نظر منه الأندلسيون لاحقاً

25 البكري، المسالك والممالك، ج 2 ص 861-862. خلاف جدالة، توزيع القيادة.

إلى طلب العون كان مجالاً يعرف حروباً وتحولات، لا قوة واحدة مستقرة.²⁶

وسيعود أثر هذه الصورة في خبر مشاورة أهل قرطبة بعد سقوط طليطلة؛ إذ ترد في رواية ابن الأثير مفاضلة بين الاستعانة بعرب إفريقية والاستعانة بالمرابطين. لا يلزم من ذلك أن كل ما قيل في المشاورة وصف محايد لجميع الناس؛ إنما يكشف الخبر تقدير أصحابه للخطر والقرب والقدرة. فالاختيار السياسي يقوم أحياناً على ما يحمله أصحاب القرار من تجارب ومخاوف، بقدر ما يقوم على عدد الجند.²⁷

الطريق إلى المعلم

في وسط هذه الأخبار عن السلطة والمال، يبرز اتصال من نوع آخر. عاد يحيى بن إبراهيم من الحج، ولقي أبا عمران الفاسي، وسأله عن يعلم قومه. وفي رواية البكري دله أبو عمران على وجاج بن

26 ابن الأثير، الكامل في التاريخ، «ذكر دخول العرب إلى إفريقية»، في هذا الموضع يذكر قطع الخطبة سنة 440هـ، ثم يجمع أخباراً لاحقة مصرحاً بأنه ساقها متتابعة. النص.

27 ابن الأثير، الكامل في التاريخ، حوادث سنة 479هـ، «ذكر وقعة الزلافة بالأندلس وهزيمة الفرنج»، مشاورة أهل قرطبة. النص.

زلوي، فاختار وجاج من أصحابه عبد الله بن ياسين، وسار المعلم مع طالب العلم إلى قومه.²⁸

هذا هو الموضع الذي نتصل فيه الجغرافيا بالتعليم. رحلة الحج تصل صاحبها بعالم، والعالم يصله بمن يظن عنده حاجته، ثم يتولى رجل السفر والعمل بين الناس. لا يقع الإصلاح في الخبر بإعلان مجرد، وراءه سؤال وتوجيه واختيار وانتقال إلى المكان الذي يحتاج التعليم.

ولن ننسب إلى هذه البداية وحدها كل ما وقع بعدها؛ فقد كان بين إرسال المعلم واتساع السلطان زمن من الاستجابة والخلاف والحرب وتغير القيادة. لكن معرفة البداية تحفظ للسيرة مقياسها الإنساني: الأعمال الكبيرة تتكون من مسؤوليات محددة يتولاها أشخاص، ثم تتجاوز نتائجها ما كان ظاهراً في الخطوة الأولى. وفي هذه الجماعة سيظهر يوسف في الأخبار، يحمل مسؤولية عسكرية، ثم يتسع نصيبه من تدبير الدولة.

28 البكري، المسالك والممالك، ج 2 ص 858-859. اقتصر المتن على وجاج ودوره في اختيار ابن ياسين، دون سنة وفاة أو تعيين مقر لا يثبتهما هذا الشاهد. البداية، اختيار المعلم.

الفصل الرابع الأندلس حين تفرقت كلمتها

مدن كثيرة وقرار متفرق

في الجانب الآخر من البحر كانت الأندلس تعيش حكم ملوك الطوائف. يصف المراكشي رؤساء استبد كل منهم بتدبير الجهات التي غلب عليها بعد الفتنة، وانقطاع الدعوة للخلافة في عامة البلاد. ويذكر أن التفرق صحبه ضعف في الثغور وازدياد أطماع القوى المجاورة. هذه خلاصة مؤرخ ينظر إلى أثر الانقسام؛ أما المدن وأهلها فكانت لهم، في أثناء ذلك، حياة أوسع من أخبار الحروب والقصور.²⁹

لم تكن المشكلة أن الأندلس خلت من الشجاعة أو العلم أو الأدب. سئى المعتمد يقاتل في الزلافة، وسئى مقاومته حين حوصرت إشبيلية. لكن شجاعة ملك في يوم لا تصل وحدها ما انقطع بين عدة ممالك، ولا تضمن أن تتفق مصالحها عند كل خطر. هذا الفرق بين فضيلة الفرد وقدرة الجماعة على العمل يفسر

29 عبد الواحد المراكشي، المعجب، «رجع القول إلى ملوك الطوائف»، في تفرق السلطان بعد الفتنة وضعف الثغور. لم يعتمد المتن عدداً معيناً للدويلات. النص.

جانباً من السؤال الذي سي طرح على يوسف حين يستنجد به أهل الأندلس.³⁰

وقد حفظ الأدب سخرية من اتساع الألقاب مع ضيق القوة. يروي ياقوت في خبر ابن شرف وابن رشيق أن ابن رشيق، حين دعي إلى دخول الأندلس، أنشد:

مما يزهدني في أرض أندلس ... أسماء مقتدر فيها ومعتضد
ألقاب مملكة في غير موضعها ... كالهريحي انتفاخاً صولة
الأسد³¹

البيتان تعبير هجائي، وليس كل ما يوحى به الهجاء حكماً تاريخياً على كل أمير. لكنهما يكشفان مسافة رأها قائلهما بين الاسم والقدرة؛ وهذه المسافة ستكبر في عين القارئ عندما تتكرر أخبار المال الذي يدفع لقاء الأمان، أو المعونة التي تطلب من قوة خارجية على جار قريب.

30 ابن الأثير، الكامل، حوادث 479هـ في دور المعتمد بالزلاقة، وحوادث 484هـ في دفاعه عن إشبيلية. الزلاقة، إشبيلية.

31 ياقوت الحموي، معجم الأدباء، خبر ابن شرف مع ابن رشيق، ج 19، ص 38 بحسب النص الإلكتروني في النسخة المعروضة بمكتبة أهل البيت. النسبة والألفاظ هنا على هذه الرواية، وفي غيرها اختلاف. النص.

إشبيلية والثغر الأعلى

يخص المراكشي بني عباد بمساحة واسعة من خبره. يروي تقديم القاضي أبي القاسم بن عباد لتدبير إشبيلية، ثم انتقال الأمر إلى ابنه المعتضد، وتحوله إلى الاستبداد بالأمر. وسيرت المعتمد هذا السلطان وما اتصل به من قوة ومنافسة. فإذا بلغنا قراره بطلب نجدة يوسف، وجب أن نتذكر أن الذي يطلبها ملك له دولة ومصالح، وأن دخوله في التحالف لا يلغي مخاوفه على ملكه.³²

وفي الشرق يذكر المراكشي بلاد بني هود، ومنها سرقسطة ولاردة وطرطوشة. وسيكون لهذه الجهة مسار مختلف عن إشبيلية؛ إذ يذكر ابن الأثير أن يوسف أبقى بني هود، ويروي وصيته لابنه بـ«أن يتعرض لهم وأن يتركهم بينه وبين العدو. فلا يجوز أن نسوي بين جميع الإمارات، أو نجعل وصف «ملوك الطوائف» حكماً واحداً على كل سياسة اتبعتها».³³

يفيدنا هذا الاختلاف في فهم التدرج الذي ستسلكه الدولة المرابطية. فليست خريطة الأندلس صفحة تنتقل كلها في يوم

32 المراكشي، المعجب، «فصل في ملك بني عباد بإشبيلية»، ثم «ولاية المعتضد بالله العبادي». النص.

33 المراكشي، المعجب، «ملوك الطوائف»، في مدن بني هود؛ وابن الأثير، الكامل، خبر بني هود عقب خبر ضم ممالك الأندلس. مدن الثغر، سياسة يوسف.

واحد من يد إلى يد، وليست علاقات يوسف بأمرائها علاقة ثابتة لا تتغير. سيتعاون مع بعضهم في الحرب، ويختلف معهم في مرحلة أخرى، وتبقى خارج سلطانه جهات لم يضمها. ومن واجب السرد أن يحتفظ بهذه الفروق ولو كانت الصورة الجامعة أبسط وأسهل للحفظ.

المال الذي لا يشتري الطمأنينة

بعد سقوط طليطلة تروي أخبار ابن الأثير اجتماع مشايخ قرطبة إلى القاضي ابن أدهم. ومن كلامهم في الرواية أنهم صاروا يعطون الجزية بعد أن كانوا يأخذونها، وأن استمرار الحال يهدد ما بقي لهم. لا يقدم هذا النص حساباً جامعاً لما دفعته كل إمارة، لكنه يقدم بوضوح صورة الشعور بفقد القدرة على حماية البلاد.³⁴

وكان بعضهم قد اقترح الكتابة إلى عرب إفريقية وبذل المال لهم، ثم رجع القاضي الاستعانة بالمرابطين لقرتهم وما رآه من صلاحهم لهذه المهمة. وفي الخبر أن المعتمد حضر المشاورة، وأن ابن أدهم حمل الرسالة إلى يوسف. هكذا تجتمع في طلب النجدة أصوات

34 ابن الأثير، الكامل، حوادث 479هـ، مشاورة أهل قرطبة وابن أدهم؛ لا يحدد الموضع مبلغاً عاماً للجزية كل إمارة. النص.

من أهل المدينة وقاضيا وصاحب السلطان، وإن اختلفت الروايات في تفاصيل الوفود وترتيبها.³⁵

إن قراءة هذا الحوار تضع طلب العون في موضعه من السيرة: قراراً ولد من تقدير خطر متزايد، وبحث عن قوة تستطيع مواجهته. ولا نحتاج إلى اختراع مشهد يعم فيه البكاء كل مسجد، أو إلى الجزم بأن الناس جميعاً رأوا البدائل نفسها. يكفي أن نعرف أن رجالاً سموا بالخطر، وناقشوا الطريق، ثم خرجت الرسالة من الكلام إلى الفعل.

يوسف من وراء البحر

ينقل ابن خلكان أن ملوك الأندلس كانوا يرهبون الفرنج بإظهار موالاتهم ليوسف، وأنهم كانوا في الوقت نفسه يكرهون أن يصبحوا بين قوتين. وهذه المفارقة تشرح حرج الاستنجاذ: القوة التي يحتاجها صاحب السلطان لإنقاذ بلاده يمكن أن تصبح، إذا اختلفت المصالح، منافساً على تلك البلاد.³⁶

35 ابن الأثير، الكامل، حوادث 479هـ، «ذكر وقعة الزلافة بالأندلس وهزيمة الفرنج». النص.

36 ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج 7 ص 113، الخوف من الوقوع بين قوتين وإظهار موالاته يوسف. النص.

ليس هذا سبباً للحكم على كل نية، وإنما هو وصف لعلاقة سياسية نقلتها المصادر. وسيكون الامتحان الأول لهذه العلاقة يوم الحرب المشتركة. هنالك لا تكفي الرسائل ولا الألقاب؛ يلزم أن يصبر جيش، وأن تصل النجدة، وأن نتصل حركة القادة. وسيظهر للمعتمد في ذلك اليوم دور تحفظه الأخبار، كما يظهر ليوسف دور حاسم.

أما ضم الممالك بعد ذلك فمرحلة أخرى لها أسبابها وأخبارها وما أخذها. لا نقرأها على أنها نتيجة كانت محتومة منذ أول رسالة، ولا نجعل مأساة نهايتها تحو حقيقة التعاون الذي سبقها. بين أول الاستغاثة وآخر الأسر طريق كامل؛ وفي متابعة هذا الطريق نفهم كيف تتغير العلاقة بين الحليفين، وكيف يكون النجاح في دفع عدو مشترك بداية لسؤال جديد عن تدير البلاد.

الفصل الخامس ما وراء القافلة التجارة والذهب ومعاش الناس

لم تكن الصحراء التي خرج منها المرابطون أرضاً خالية بين بلدين. كانت فيها طرق تُسلك، وآبار يُقصد مأوها، وقبائل تعرف منازلها، وتجار يحملون إلى أهلها ما لا تصنعه بيئتهم. يصف البكري لمتونة قوماً رحلاً، أكثر معاشهم من أنعامهم ولحومها وألبانها، ويذكر وصول التجار إليهم بالدقيق والخبز من بلاد الإسلام وبلاد السودان.³⁷ في هذا المشهد يظهر طرف من العالم الذي اتسعت فيه سلطة يوسف: أناس يتنقلون طلباً للرعى، وأناس يقطعون المسافات طلباً للرزق، وحاجة متبادلة تصل بين الفريقين.

وحين يذكر البكري طريق درعة، تكرر في وصفه المسافة إلى الماء وصفته: بئر قريبة من الملوحة، وأخرى في حجر صلب، ثم مفاوز يتباعد فيها الماء أياماً.³⁸ هنا يمكن أن نفهم معنى الطريق قبل أن ننظر إلى ما تحمله القافلة من ذهب. فالحمولة لا تصل بقيمتها وحدها؛ تحتاج إلى ماء ودواب ومعرفة بالمنازل. وكل حديث عن

37 البكري، المسالك والممالك، دار الغرب الإسلامي، 1992، ج2، ص857: الشاهد إثراء سياق المعاش؛ الوصف للقبيلة في زمن المصدر ولا يثبت سيرة يوسف الشخصية.

38 البكري، المسالك والممالك، دار الغرب الإسلامي، 1992، ج2، ص857: الشاهد

ثراء التجارة يظل ناقصاً إذا محاذ هذه الكلفة من الصورة. ليست الصحراء جسراً يعبر في سطر، وإنما مسافة يدفع المسافر ثمن اجتيازها من الزاد والوقت والجهد.

سوق يسمع فيها ضجيج الناس

وعلى أحد أطراف هذه المسالك كانت أودغست. يصفها البكري مدينة كبيرة، فيها جامع ومساجد ومعلمون للقرآن، وحولها نخيل وزراعة وآبار.³⁹ ثم يقربنا من سوقها، فيصف ضجيجاً يضيع فيه كلام المتحدث إلى جليسه لكثرة المجتمعين، ويذكر أن تباع أهلها بالتبر، وأن القمح والتمر والزبيب يُجلب إليها من بعيد.⁴⁰ والتبر ذهب لم يضرب نقداً. هكذا يخرج المكان من صورة الاسم الغامض: مدينة لها صلاة وتعليم ومعاش، وناس يحتاجون إلى الطعام وإن كان الذهب حاضراً في تجارتهم.

ولا تتجه الحركة التجارية في طريق واحد. ففي وصف البكري يحمل التجار إلى أودغست النحاس المصنوع والثياب الملونة، ويجلبون منها العنبر والذهب.⁴¹ وهذه السلع المتنوعة أصدق في رسم السوق

39 البكري، المسالك والممالك، ج 2، ص 848: الشاهد

40 البكري، المسالك والممالك، ج 2، ص 849: الشاهد نقل بالمعنى؛ في التفرغ «حليسه»، ولذلك لم يثبت اقتباس مصحح صامتاً.

41 البكري، المسالك والممالك، ج 2، ص 850: الشاهد إثبات تنوع المتاع؛ لا يثبت هذا قيمة إجمالية ولا حصة للخرينة.

من اختزالها في قناطير الذهب وحدها. فالثياب تحتاج إلى صناعة، والنحاس إلى عمل، والطعام إلى أرض تسقى وأيد تزرع؛ وما نسميه تجارة الصحراء يجمع وراءه أعمالاً كثيرة لا يظهر أصحابها في أخبار الملوك.

ومن الجنوب إلى الشمال تبرز سجلماسة. يصف البكري أبنيتها وأرباضها وبساتينها، ويذكر سقي الزروع من النهر في حياض، وكثرة النخل والعنب فيها.⁴² لم تكن بوابة للتجارة فحسب، بل مدينة تعيش من موارد متداخلة. ومن هنا يمكن أن نفهم جانباً من قيمة السيطرة على المدن في مسار المرابطين: دخول الحاضرة يضع بين يدي الأمير مسؤولية أسواقها وأرضها ومائها، إلى جانب مسؤولية حاميها. وهذا فهم لطبيعة الحكم، لا خبر عن برنامج اقتصادي نُقل عن يوسف بلفظه.

الذهب في بلاد غانة

يأخذنا البكري إلى مجال آخر من هذه التجارة حين يصف غانة في عصره. وفيه يذكر الذهب وموارد الملك وقواعد يتبعها ملك البلاد في تحصيل المال؛ فمن ذلك ما يؤخذ على حمل الملح عند دخوله وخروجه، وما يؤخذ على النحاس والمتاع. ويذكر كذلك أن الملك

42 البكري، المسالك والممالك، ج2، ص835: الشاهد؛ البكري، المسالك والممالك، ج2، ص836: الشاهد اجمع بين شواهد العمران والزراعة دون إسناد إنشاء جميعها إلى المرابطين.

يستصفي قطع الذهب الكبيرة ويترك للناس التبر الرقيق.⁴³ هذه أخبار عن مملكة غانة كما وصفها البكري، وليست كشفًا بحسابات يوسف ولا دليلًا على أن مناجمها كانت ملكًا له.

ويظهر من اجتماع الملح والنحاس والمتاع والذهب أن القيمة لا يصنعها المعدن وحده، بل تصنعها حاجة الأسواق وما يصل إليها. أما مقدار ما دخل خزائن المرابطين من هذا الطريق، وما كان للتجار منه، وما كان للسلطان، فأسئلة لا تجيب عنها وفرة الذهب في وصف مدينة بعيدة. اتصال السوق بسوق آخر لا يجعل مال أهله كله مألًا للدولة التي تمر القوافل ببلادها.

وللعلاقة بين هذه البلاد وجه يتجاوز البيع والشراء. ففي وصف مدينة غانة يذكر البكري مساجد المسلمين وفقهاءهم، ويذكر مسلمين يعملون في الترجمة وخدمة مالية الملك.⁴⁴ لا يستوي إذن أن نرسم الجنوب كتلة واحدة لا دين فيها ولا علم ولا مدينة، ثم نجعل كل عمران لاحق من صنع دولة جاءت من الشمال. كانت العلاقات أقدم وأعمق، وكانت التجارة تحمل الناس واللغة

43 البكري، المسالك والممالك، ج2، ص874: الشاهد الخبر في غانة، ولا يدل على امتلاك يوسف مناجمها.

44 البكري، المسالك والممالك، ج2، ص872: الشاهد إثبات تعدد أحوال المجتمع قبل تعميم صورته في أخبار الفتوح.

والخبرة مع البضائع. وهذا السياق يساعد على قراءة أخبار الفتح حين تأتي، بما فيها من تعاون وصراع وتبدل في السلطان.

حين يصل المال إلى يد الأمير

كان اتساع الحكم يضع أمام يوسف سؤالاً آخر: بأي حق يؤخذ المال، وفي أي وجه ينفق؟ وسيأتي تفصيل الروايات عن سياسته المالية في موضعه، أما هنا فحسبنا أن نفرق بين ثروة البلاد وثراء صاحبها. فالسوق العامرة لا نخبرنا وحدها بعدالة الجباية، وخزينة السلطان لا نخبرنا وحدها برخاء كل بيت. ولا يكفي مدح الحاكم حتى تتحول أخبار التجارة إلى إحصاء للفقر والأسعار في عهده.

إن معرفة هذا العالم تجعل سيرة يوسف أوسع من تعاقب المعارك. وراء كل حركة جيش زاد يحتاج إلى جمع، ووراء المدينة التي يدخلها أهل لهم أرزاق، ووراء الطريق تجار يتأثرون بالأمن والحرب. هذه لوازم لفهم الوقائع وليست مشاهد نخترعها للرجل. وكلما عدنا إلى فعله المحدد — ولاية يوليها، أو مدينة يعمرها، أو مال يؤثر به غيره — أمكن أن نرى كيف واجه جزءاً من هذه المسؤولية، من غير أن ننسب إليه حساباً لم يبق لنا أو قولاً لم يقله.

الفصل السادس يوسف في قومه الاسم والقربة وموقع المسؤولية

أبو يعقوب يوسف بن تاشفين اللمتوني. بهذا الاسم والكنية والنسبة يقدمه ابن خلكان، وبهما يعرفه الذهبي أيضاً في ترجمته.⁴⁵ قبل الألقاب التي اتسعت باتساع سلطانه، كانت هناك صلة بقومه، ثم مسؤولية حملها بينهم. والنسبة إلى لمتونة تدخلنا إلى هذا الجانب من سيرته؛ أما عمل الرجل فلا تختصره سلسلة أسماء مهما طالت.

ويذكر ابن زرع نسب الصنهاجي، ويسمي أمه فاطمة بنت سير، ويصفها بأنها لمتونية وابنة عم أبيه.⁴⁶ يحفظ هذا الخبر اسم الأم وصلتها بالبيت، ثم تقصر الرواية عن تفصيل حياتها. وتلك حال كثير من البيوت التي نعرف أبناءها حين يخرجون إلى المسؤولية العامة، ولا نعرف من أيامهم الأولى إلا أسماء قليلة وصلات متفرقة.

45 ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج7، ص112، ترجمة يوسف بن تاشفين: الشاهد؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج19، ص253-254، ترجمة «صاحب الغرب»: الشاهد إثبات القدر المشترك دون إسناد سلسلة طويلة إلى مصدر لا يوردها.

46 ابن أبي زرع، الأئيس المطرب بروض القرطاس، نسخة 1917، ص87، صفحة الملف 88: الشاهد رواية ابن أبي زرع، لا تستخرج منها أخبار تربية أو حوار.

القراءة التي تظهر في العمل

تظهر صلة يوسف بأبي بكر بن عمر في خبر ذي أثر مباشر في مساره؛ فحين يذكر ابن أبي زرع حملة أبي بكر نحو السوس يجعل على مقدمته «ابن عمه يوسف بن تاشفين».⁴⁷ ليس بين أيدينا هنا خبر طفل يراقب الحرب من بعيد، بل رجل تسند إليه مقدمة الجيش. ثم تعود عبارة القراءة عند الاستخلاف على المغرب.⁴⁸ بين الموضوعين يتقدم يوسف في المسؤولية التي تعرضها الرواية، من قيادة جزء من القوة إلى تدبير جهة من البلاد.

تساعد القراءة على فهم بعض صلات هؤلاء الرجال، لكنها لا تقوم مقام وصف الكفاية. ففي خبر اختياره للمغرب يذكر ابن أبي زرع اتفاق أشياخ المرابطين على تقديمه، ويعلل ذلك بما عرفوه من شجاعته وحزمه ودينه ورأيه.⁴⁹ وهذه شهادة المؤرخ بما حمله عن تلك المرحلة، نقرأها منسوبة إليه. وهي، في حدود الرواية، تجعل الاختيار متعلقاً بأكثر من مجرد الانتساب إلى البيت نفسه.

47 ابن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس، نسخة 1917، ص82، صفحة الملف 83: الشاهد الإبقاء على لفظ القراءة في المصدر دون تركيب شجرة تفصيلية.

48 ابن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس، نسخة 1917، ص86، صفحة الملف 87: الشاهد موضع ثان لخبر القراءة والاستخلاف، دون الجزم بكل أسباب القرار.

49 ابن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس، نسخة 1917، ص86، صفحة الملف 87: الشاهد مدح وتعليل في رواية المؤرخ؛ لا شهادة مستقلة لكل شيخ.

ولفظ «ابن عمه» يثبت لنا أن المصدر يصف صلة قرابة، ولا يرسم وحده جميع حلقات النسب. لذلك نمضي مع الصلة حيث يظهر أثرها في الخبر، ولا نبني عليها شجرة تفصيلية ثم نجعل كل قرار سياسي نتيجة حتمية لتلك الشجرة. فالقرابة قد تجمع رجلين، لكن اختلاف المسؤولية والمصلحة قد يضع بينهما سؤالاً صعباً، وسيظهر ذلك في خبر عودة أبي بكر إلى المغرب، فلا نسبق الرواية بتصوير انتقال الإمارة طريقاً خالياً من التوتر.

ما وراء الانتساب إلى حمير

وفي الأصول البعيدة لصنهاجة أخبار اختلف فيها أصحاب النسب. يورد ابن أبي زرع ليوسف نسبة حميرية في صدر ترجمته.⁵⁰ وفي مقابل ذلك يعترض ابن حزم، في باب أنساب البربر، على دعاوى اتصال طوائف منهم بحمير أو ببر بن قيس، ويقول في سياق اعتراضه: «ولا كان لحمير طريق إلى بلاد البربر، إلا في تكاذيب مؤرّخي الين».⁵¹ فهذه مسألة نقل ونقد بين مصادر، لا لفظ واحد اتفقوا عليه ثم أهملناه.

50 ابن أبي زرع، الأئيس المطرب بروض القرطاس، نسخة 1917، ص 87، صفحة الملف 88: الشاهد إظهار النسبة بوصفها رواية يناقشها خلاف أهل النسب.

51 ابن حزم، جهرة أنساب العرب، باب «وهذه جمهرة من نسب البربر»، ص 495 بحسب ترقيم النص الإلكتروني: الشاهد يناقش ابن حزم النسب الحميري؛ ونقل رأيه لا يحسم الخلاف في أنساب هذه القبائل.

لا يغير هذا الخلاف اسم القائد الذي نتابع سيرته، ولا ينقل أفعاله من موضعها. والذي يعيننا من ذكره أن تكون صورة الرجل أمينة لما نعلمه: لمتوني النسبة في تراجم الأئمة، متصل بالقيادة المرابطية في أخبار استخلافه، ثم صاحب أعمال يمكن بحثها والحكم عليها. أما حسم كل سلسلة بعيدة، أو تعليل نشأتها بدوافع أصحابها من غير شاهد، فيحمل السيرة أكثر مما تحتمله أدلتها.

وحين نخرج من باب النسب إلى باب المسؤولية، يبقى السؤال الذي ستجيب عنه الأخبار: ماذا صنع هذا الرجل حين وضع في مقدمة الجيش، وماذا صنع حين صار أمر البلاد إليه؟

الفصل السابع سنوات العمر ما تقوله الروايات

انتهت حياة يوسف بن تاشفين في سنة خمسمائة للهجرة، لكن مقدار ما سبق ذلك من سنوات لم يصل إلينا في رواية واحدة. يذكر ابن خلكان أنه عاش تسعين سنة، ويعين وفاته بالاثنتين لثلاث خلون من المحرم.⁵² أما الذهبي فيقول: «مات في أول سنة خمسمائة وله بضع وثمانون سنة».⁵³

وترد عند ابن أبي زرع رواية ثالثة: يجعل مولده سنة أربعمائة بالصحراء، ويقول إن عمره بلغ مائة سنة.⁵⁴ هذا خبر صريح بالمولد عند ذلك المؤلف، وليس مجرد عملية حساب أجريت على سن

52 ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج7، ص125 في النص الإلكتروني، ترجمة يوسف بن تاشفين. يذكر تسعين سنة ويحدد الوفاة لثلاث خلون من المحرم سنة خمسمائة؛ معانية نص إلكتروني، دون مقابلة صورة الطبعة: الشاهد. اختلاف السن لا يحسم هنا.

53 الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج19، ترجمة صاحب الغرب، عند علامة ص254: الشاهد. نص إلكتروني معانٍ، يذكر بضعاً وثمانين سنة، ولا ثبت من هذا الموضع نسبة المائة إليه.

54 ابن أبي زرع، الأئیس المطرب بروض القرطاس، نسخة 1917، ص88 المطبوعة/صفحة الملف 89. ينص المؤلف على المولد سنة 400هـ والعمر 100 سنة، وتكرر سن المائة في صفحة الملف 102. هذه رواية تخالف مقدار العمر عند ابن خلكان والذهبي؛ ولا ينهض اختلاف هذه التقديرات بترجيح يقيني. موضع الشاهد.

الوفاة؛ لكنه يظل واحداً من أقوال مختلفة، ولا يجمع مع الروايتين الآخرين كأنها تتفق في العدد.

تترك هذه الأخبار أمامنا حياة طويلة انتهت عند مطلع القرن السادس، وتدعونا إلى التروي حين نبحث عن بدايتها. فما يصح أن ينسب إلى مؤرخ قد لا يقوله مؤرخ آخر؛ ورواية المائة التي نجدتها عند ابن زرع لا تجعل نص الذهبي شاهداً لها، وهو ينص على البضع والثمانين.

ويظهر أثر الخلاف حين نحاول تعيين عمر يوسف في كل واقعة. إن رجح الباحث إحدى الروايات استطاع أن يبني عليها حساباً مشروطاً، أما القارئ فلا ينبغي أن ينتقل بين أرقام مأخوذة من روايات مختلفة من غير أن يشعر. لذلك تمضي السيرة هنا على توارخ الوقائع، ويبقى تحديد السن تابعاً للرواية التي يستند إليها.

وسنرى يوسف في مسؤولياته وأعماله، لا في طفولة نملاً فراغها بالتخيل. إن شخ الخبر عن أول العمر لا يسلب الرجل ما حفظ من سيرته؛ لكنه يعلمنا أن نصحب ما وصل إلينا بأمانة، وأن نترك الفراغ على قدره حتى يأتي ما يملؤه من شاهد.

الفصل الثامن الرجل كما وصفه المؤرخون

عندما يصل ابن خلكان إلى هيئة يوسف، يصف رجلاً معتدل القامة، أسمر اللون، نحيف الجسم، خفيف العارضين، دقيق الصوت.⁵⁵ ويذكر الذهبي سمرة اللون والنحافة وخفة اللحية ودقة الصوت أيضاً، ويصف ملازمة يوسف وجيشه للثام.⁵⁶ هذه ملامح محددة تساعدنا على تصور الرجل؛ أما لون عينيه، وحركتهما، وأثر الشمس في جسده، وما كان يضطرب في نفسه، فليست أجزاء من هذا الوصف.

وليس من ضرورة الهيبة أن تكون في ضخامة الجسم أو ارتفاع الصوت. هذا معنى يثيره الوصف في نفس القارئ، لا واقعة إضافية ننسبها إلى يوسف. نستطيع أن نفهم الفرق بين المظهر والحضور من غير أن نضع على وجهه ابتسامة لم يذكرها شاهد، أو نجزم بأن الناس كانوا يصمتون عند كل كلمة منه.

55 ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج 7 ص 125، وصف هيئة يوسف، نقل بالمعنى من نص إلكتروني معين: الشاهد.

56 الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج 19، ترجمة صاحب الغرب، ص 253-254 بحسب علامات النص الإلكتروني: الشاهد. لا يتضمن الموضع وصف العينين أو عبارة معروق الوجه.

اللسان والكتابة

في رواية أوردها ابن خلكان عن مراسلة ملوك الأندلس، يذكر أن الكاتب قرأ على يوسف كتابه بلسانه، فاستحسنه.⁵⁷ تكشف الرواية عن عمل الكاتب وعرض الرسالة على صاحب الأمر؛ لكنها وحدها لا تحدد مقدار معرفة يوسف بالعربية قراءة وكتابة وفهماً. ومن الخطأ أن نشق منها منهج دراسته، أو أسماء معلميه، أو قائمة السور التي حفظها.

والكاتب في مثل هذا الخبر يؤدي وظيفة واضحة: يصوغ الرسالة ويعرضها، ثم يمضي القرار باسم الأمير. يبقى الفرق قائماً بين مهارة صياغة الكلام وبين تحمل مسؤولية ما يقوله الكتاب. وهذه قراءة في بنية الخبر، وليست شهادة بأن يوسف كان عالماً بفنون البلاغة أو عاجزاً عن كل عبارة عربية.

أهل العلم في صورته

ينقل ابن خلكان عن ابن الأثير ميل يوسف إلى أهل العلم والدين وإكرامهم لهم وصدوره عن آرائهم.⁵⁸ وفي هذا أصل نافع لفهم

57 ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج 7 ص 115: الشاهد. يسوق السياق نقلاً عن كتاب المغرب عن سيرة ملك المغرب، الذي لم يعين مؤلفه في مقدمة النقل (ج 7 ص 112-113). معانية إلكترونية؛ الرواية منسوبة إلى ناقلها ولا تستقل بإثبات مستوى اللغة أو منهج التعليم.

علاقته بالعلماء، من غير أن نضيف إليه مجلساً ثابت الأعضاء أو فتوى مكتوبة تسبق كل حركة من حركات الدولة.

تتكون صورة الرجل من هذه الحدود الواضحة: هيئة وصفها أصحاب التراجم، ولسان تظهر الحاجة إلى شرحه في خبر مراسلة، وعلاقة بأهل العلم نقلها المؤرخون. لا تضيق السيرة حين تحفظ هذه الحدود؛ بل يزداد حضور صاحبها وضوحاً، لأن ما نراه عندئذ من خبره لا من خيالنا.

58 ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج 7 ص 125، نقلاً عن ابن الأثير؛ نقل بالمعنى، لم تُقابل هنا نسخة مستقلة من الكامل: الشاهد .

الفصل التاسع البيت الذي نعرف بعض أسمائه

قبل أن نرى يوسف في مجلس الحكم، نود أن نراه في بيته الأول:
من أبوه؟ ومن أمه؟ ومن الذين أحاطوا به؟ غير أن الرغبة في
الاقترب لا تمنحنا أخباراً لم تحفظها الشواهد التي بين أيدينا. يذكر
ابن أبي زرع أمه باسم فاطمة بنت سير بن يحيى، ويصفها بأنها
لمتونية وابنة عم أبيه؛ فاسمها حاضر في هذه الرواية، وإن بقيت
تفاصيل صلته بها خارج ما يثبتته الموضع.⁵⁹

لا نملك من هذا الاسم وحده قصة عن تربيته، ولا وصية قالها
أبوه، ولا حواراً دار في خيمته. وتبقى للقراءة متعتها حين تحتفظ
للإنسان بحقيقته: نعرف منه قدر ما ظهر، ونتوقف عند الحد الذي
لا يجاوز الظن.

59 ابن أبي زرع، الأئيس المطرب بروض القرطاس، نسخة 1917 المعروضة بويكي مصدر،
ص 87 بحسب رقم النص المعروض، صفحة الملف 88. النص المباشر. اسم الأم ووصف قرابتها
موجودان في ترجمة يوسف؛ لا يثبت مجرد ورودهما تحقيق النسب قطعياً، حفظت النسبة إلى
المؤرخ. عوين التفرغ الإلكتروني؛ لم تقابل صورة المطبوع.

القرابة حين تصير مسؤولية

أوضح الروابط في المرحلة التي ترويه المصادر هنا صلته بأبي بكر بن عمر؛ يسميه ابن أبي زرع ابن عمه، ويجعل استخلافه على المغرب نقطة انتقال ظاهرة في حياته السياسية.⁶⁰ وهكذا ندخل إلى معرفة الأسرة من فعل ترويه الأخبار: رجل يفوز إلى قريبه أمراً كبيراً، ثم يكبر سلطان المستخلف ويعود الأمير الأول. وما سيجري بينهما يكشف من طبيعة العلاقة أكثر مما تكشفه شجرة نسب مطولة لا نملك توثيق فروعها.

وفي طبقة الأبناء يذكر ابن أبي زرع، ضمن من يسميهم، علياً وتيمماً وأبا بكر والمعز وإبراهيم.⁶¹ وسيظهر تيمم في خبر ولاية بعض أعمال المغرب، ويأتي علي في نهاية سيرة أبيه عند انتقال الحكم. لهذه الأسماء مواضعها في الأحداث؛ فلا نجعل أبناء الرجل وقادته وبني عمومته في قائمة واحدة، ولا نحول تشابه الاسم إلى قرابة جديدة.

60 ابن أبي زرع، الأئیس المطرب بروض القرطاس، نسخة 1917 المعروضة بويكي مصدر، ص 86 بحسب رقم النص المعروض، صفحة الملف 87. النص المباشر. يصف صلة يوسف بأبي بكر بلفظ ابن عمه؛ لم نعتمد شجرة القرابة التفصيلية السابقة. عوين التفرغ الإلكتروني؛ لم تقابل صورة المطبوع.

61 ابن أبي زرع، الأئیس المطرب بروض القرطاس، نسخة 1917 المعروضة بويكي مصدر، ص 88 بحسب رقم النص المعروض، صفحة الملف 89. النص المباشر. هذه أسماء من قائمة الأبناء؛ لم تدع القائمة استيعاب جميع أولاده. لا تحول إلى خبر عن طفولته. عوين التفرغ الإلكتروني؛ لم تقابل صورة المطبوع.

إن معرفة البيت جزء من معرفة صاحبه. لكنها تبدأ باسم مضبوط وعلاقة موثقة، ثم تتسع بما يأتي به الدليل؛ ومن هذا الباب ندخل إلى صلته بأبي بكر، وإلى حضور زينب في مرحلة اشتداد أمره.

الفصل العاشر سؤال عاد به حاج من سفره

قبل أن نتسع ليوسف بن تاشفين طرق المغرب، كان وراء نشأة الحركة التي سيقودها سؤال حمله رجل عائد من الحج: من يعلم قومه دينهم؟ يروي أبو عبيد البكري أن يحيى بن إبراهيم، رئيس بني جدالة، لقي أبا عمران الفاسي في طريق عودته؛ فسأله الفقيه عن بلده وسيرته ومذهبه، فرأى قلة علمه، ورأى معها حرصاً على التعلم.⁶²

وتنقل رواية البكري جواب يحيى: «لا يصل إلينا إلا معلّمون لا ورع لهم ولا علم بالسنة عندهم». ثم طلب أن يصحبه رجل يثق أبو عمران بعلمه ودينه، يتولى التعليم وإقامة أحكام الشريعة في قومه.⁶³ كان السؤال قد انتقل من وصف الحاجة إلى التماس من يحمل مسؤوليتها. وفي هذا الانتقال تكمن دلالة الموقف: معرفة النقص تفتح الطريق، لكن الطريق يحتاج إلى معلم يذهب إلى الناس ويقيم بينهم.

62 البكري، المسالك والممالك، ج2، ص858، خبر يحيى بن إبراهيم وأبي عمران وعبد الله بن ياسين. ص858.

63 البكري، المسالك والممالك، ج2، ص858، خبر يحيى بن إبراهيم وأبي عمران وعبد الله بن ياسين. ص858.

عرض أبو عمران الأمر، فلم يجد فيمن ارتضاهم من يجيبه إلى السير مع يحيى. يثبت البكري هذه النتيجة، ثم يذكر أنه دله على وجّاج بن زلوي، فقيه بملكوس سبق أن لقيه وعرف حذقه وورعه.⁶⁴ لم تنته الرحلة عند اعتذار المرشحين الأولين. صار ليحيى مقصد آخر، ورجل آخر يسأله، وأمل في أن يجد عنده من تعذر العثور عليه في القيروان.

هذه حلقة صغيرة في ظاهرها، لكنها تصل بين صاحب الحاجة ومن يقدر على قضائها. لا يخرج أبو عمران في الرواية إلى الصحراء، ولا يكتفي بصرف السائل؛ يدلّه على من يعرفه. ويواصل يحيى طلبه. ومن مجموع هذين الفعلين نفهم كيف يمكن لعلم رجل أن يبلغ بلاداً لم يرحل إليها بنفسه، إذا أحسن الدلالة على من يحمل التعليم إليها.

مضى يحيى إلى وجّاج وأخبره بما جرى مع أبي عمران، فاختار له وجّاج عبد الله بن ياسين من أصحابه. هذه هي صورة الاختيار في رواية البكري: فقيه يعرف صاحبه، ورئيس قوم يطلب معلماً، ورجل يقع عليه الاختيار.⁶⁵ ولا تحتاج قوة هذا الموقف إلى مجلس

64 البكري، المسالك والممالك، ج2، ص858-859، خبر يحيى بن إبراهيم وأبي عمران وعبد الله بن ياسين. ص858، ص859.

65 البكري، المسالك والممالك، ج2، ص859، خبر يحيى بن إبراهيم وأبي عمران وعبد الله بن ياسين. ص859.

نصطنع أصواته، أو كلام نضعه على لسان ابن ياسين. يكفي أن الطريق الذي بدأ بطلب صار له صاحب يتوجه مع يحيى إلى قومه.

وصل ابن ياسين، ويذكر البكري أن سبعين رجلاً اجتمعوا للتعلم منه والانقياد له.⁶⁶ وهنا تبدل طبيعة المسؤولية: ما كان حديثاً بين رجلين أصبح صلة بين معلم وجماعة، لكل واحد منها عاداته ومصلحه وما اعتاده من أحكام. قبول المعلم أول الأمر لا يخبرنا وحده بما سيجري حين تمس دعوته تلك العادات؛ ولهذا ستأتي أخبار المرحلة التالية وفيها قبول ونزاع، واتساع وتعثر.

نقرأ هذه البداية لأن سيرة يوسف لا تفصل عن نشأة المرابطين، مع بقاء الحد الفاصل بين الأمرين: هذا خبر الحركة قبل أن يتصدر يوسف أخبارها، وليس خبراً عن حضور يوسف هذا اللقاء أو هذه الرحلة. فمن أمانة صحبته أن نعرف الطريق الذي سبقه، دون أن نجعله حاضراً في كل مشهد لمجرد أنه سيغدو أشهر رجاله.

ويؤرخ البكري قيام هذه القبائل بالدعوة ورد المظالم وقطع المغارم بما بعد الأربعين وأربعمائة، بينما يقول عن ج يحيى إنه وقع في

66 البكري، المسالك والممالك، ج2، ص859، خبر يحيى بن إبراهيم وأبي عمران وعبد الله بن ياسين. ص859.

بعض السنين.⁶⁷ تبقى البداية في هذا الشاهد ذات معالم واضحة، وإن لم يعطنا يوم اللقاء أو سنة الحج: سؤال في القيروان، ودلالة على فقيهه، واختيار معلم، ثم جماعة تلتف حوله. ومن هذه المعالم تتابع ما نشأ بعدها.

67 البكري، المسالك والممالك، ج2، ص858، خبر يحيى بن إبراهيم وأبي عمران وعبد الله بن ياسين. ص858.

الفصل الحادي عشر عبد الله بن ياسين بداية لم تخل من الخلاف

لا تمضي رواية نشأة المرابطين في طريق مستوٍ من الترحيب إلى النصر. ففي خبر البكري تبدأ جماعة تتعلم من عبد الله بن ياسين، ثم تتسع قدرتها، ويستعمل عليها يحيى بن عمر. ويذكر المؤلف أن ابن ياسين كان يتخرج من طعام القوم وألبانهم لاعتقاده أن أموالهم غير طيبة، وأنه كان يعيش من صيد البرية.⁶⁸ هذا وصف من البكري لموقفه، وفيه تظهر مسألة المال جزءاً من الحياة اليومية للدعوة، لا عنواناً بعيداً عنها.

ثم يورد البكري خبر مدينة أمر ابن ياسين ببنائها، سماها «أرتنّي»، ومنع أن يعلو بناء بعض أهلها على بناء بعض. أطاعوه أول الأمر، ثم نقموا عليه أموراً يقول المؤلف إن ذكرها يطول، ويذكر أنهم رأوا في أحكامه شيئاً من التناقض.⁶⁹ تتغير الصورة هنا: المعلم الذي اجتمعوا عليه صار محل اعتراض. ولا نستطيع أن نستخرج من

68 البكري، المسالك والممالك، ج2، ص859، خبر يحيى بن إبراهيم وأبي عمران وعبد الله بن ياسين. ص859.

69 البكري، المسالك والممالك، ج2، ص859، خبر يحيى بن إبراهيم وأبي عمران وعبد الله بن ياسين. ص859.

العبرة المجملة تفاصيل خصومة لم يسقها صاحبها، لكنها تمنعنا من تصوير الجماعة الأولى ككلمة واحدة لا تعرف الخلاف.

يسمي البكري فقيهاً ورجلين من كبرائهم قاموا عليه، ثم يروي عزله عن الرأي والمشورة، وأخذ بيت المال منه، وطرده وهدم داره وانتهاب ما فيها. خرج ابن ياسين مستخفياً حتى أتى وجّاجاً، فعاتب وجّاج القوم وأمره بالرجوع إليهم. وتمضي الرواية إلى عودته وقتل معارضيه، وإلى اتساع سلطانه في الصحراء.⁷⁰

ليست هذه التفاصيل مما يصح طيه في عبارة أن الجميع استجابوا بلا مقاومة. وهي أيضاً رواية مؤلف لها ألفاظها وحدودها؛ لا تجعل كل فعل مذكور فيها حكماً شرعياً مقررًا. فالمؤرخ يخبر عما نسبته إلى رجل، وصحة الحكم على فعل بعينه تحتاج إلى معرفة أسبابه وشروطه ودليله. وفي قراءة القدوات لا يغنينا حسن المقصد العام عن هذا التمييز.

ونلخص الاعتزال صيغة أخرى عند الناصري. ففي «الاستقصا» هم ابن ياسين بالرحيل إلى قوم دخلوا الإسلام، لكن يحيى بن إبراهيم استبقاه، ثم اقترح عليه جزيرة يعتزلان فيها. وتذكر الرواية دخولهما ومعهما سبعة نفر من كدالة، وإقامة رابطة، واجتماع أناس

70 البكري، المسالك والممالك، ج2، ص859-860، خبر يحيى بن إبراهيم وأبي عمران وعبد الله بن ياسين. ص859، ص860.

حولهما حتى صاروا نحو ألف رجل.⁷¹ يحيى بن إبراهيم حاضر في هذا الخبر، يشير ويصاحب؛ فلا يستقيم أن نقدم الرواية نفسها بعد خبر جازم بأنه مات قبل الاعتزال، ثم نستبدله يحيى بن عمر وأخيه من غير بيان.

يصف الناصري التعليم في تلك الرابطة بإقراء القرآن والترغيب في الخير وثواب الله والتحذير من عقابه.⁷² هذه المعالم تكفي لبيان وجهها التعليمي والتعبدية. أما جدول يومي مفصل، يوزع ساعات القوم بين كتب معينة وتدريبات وأوراد، فلا نستمد من هذا الموضع. تبقى التفاصيل التي لا يسوقها الخبر خارجه، وتبقى صورته مؤثرة بما فيها: نفر قليل يعتزل، ثم أناس يقصدونه للتعليم.

بين الروایتين اختلاف في الأشخاص ومسار الخروج والعودة. نقرأهما منسوبتين إلى صاحبيهما، ولا نضم رجوع ابن ياسين إلى وجّاج عند البكري إلى جزيرة الناصري لنصنع قصة واحدة مكتملة من عندنا. وما يجمعهما على هذا القدر المحدود أن نشأة الجماعة

71 أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج 2 ص 8 في النص الإلكتروني: يحيى بن إبراهيم يقترح الجزيرة وسبعة من كدالة ونحو ألف لاحقاً. النص). المعاينة: نص إلكتروني، دون مقابلة صورة الطبعة. المطابقة هنا ثبت وجود الرواية في هذا الموضع، ولا تكفي وحدها لإثبات جميع تفاصيلها تاريخياً.

72 أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج 2 ص 8: تعلم القرآن والترغيب والترهيب. النص). المعاينة: نص إلكتروني، دون مقابلة صورة الطبعة. المطابقة هنا ثبت وجود الرواية في هذا الموضع، ولا تكفي وحدها لإثبات جميع تفاصيلها تاريخياً.

اقتترنت بالتعليم، وأن التعليم واجه امتناعاً ومقاومة، ثم اتسع أثره؛
أما ترتيب التفاصيل فليس واحداً.⁷³

ومع اتساع الجماعة دخلت أحكام المال والحرب في أخبارها. يذكر
البكري طلب ثلث أموال لمطة لتطهير ما بقي منها بحسب ما نسبته
إلى تدير ابن ياسين.⁷⁴ نحفظ الخبر بحدوده، ولا نحوله إلى قاعدة
للمرين أو الناس في أخذ الأموال. فالاعتداء لا يعني تحويل كل
إجراء تاريخي إلى تشريع، كما أن نقد إجراء لا يسوغ اختصار حياة
صاحبه فيه.

ويصف البكري صفوف المقاتلين وسلاحهم: رماحاً طويلة في
الصف الأول، ومزاريق في الصفوف التالية، وراية ينظمون
بحركتها وقوفهم وجلوهم.⁷⁵ نرى في هذا الوصف جماعة انتقلت
إلى عمل عسكري منظم. سيكون لهذه المرحلة أثرها في موضوع
السيرة، حين نصل إلى أمراء الجند وظهور يوسف في القيادة؛

73 البكري، المسالك والممالك، ج2، ص859-860، خبر يحيى بن إبراهيم وأبي عمران وعبد الله بن ياسين. ص859، ص860. وقارن رواية الناصري في الاستقصا، ج2، ص8؛ وهو جامع متأخر. نص الاستقصا).

74 البكري، المسالك والممالك، ج2، ص860، خبر يحيى بن إبراهيم وأبي عمران وعبد الله بن ياسين. ص860.

75 البكري، المسالك والممالك، ج2، ص860، خبر يحيى بن إبراهيم وأبي عمران وعبد الله بن ياسين. ص860.

لكن موضع البكري هنا يصف المرابطين جماعة، ولا يسمي يوسف تلميذاً حاضراً في كل مجلس أو مقاتلاً في كل واقعة.

هكذا نقرب من البيئة التي سبقت إمارته: دعوة وتعليم، وصلات بين علماء ورؤساء قبائل، واختلاف حول الطاعة والأموال، ثم تنظيم للقتال. صورة فيها حركة وتكليف وأخطاء محتملة، وتحتاج أخبارها إلى قراءة عادلة. ومنها ننقل إلى الرجال الذين حملوا القيادة الميدانية، قبل أن تتسع المسؤولية ليوسف نفسه.

الفصل الثاني عشر يحيى وأبو بكر قيادة اختبرتها الفتوح والخلاف

كان عبد الله بن ياسين حاضراً في دعوة المرابطين وتعليمهم، وكان إلى جانبه أمير يقود الجند: يحيى بن عمر. يذكر البكري أن المرابطين استعملوه على أنفسهم، وأنه كان شديد الانقياد لابن ياسين.⁷⁶ لكن العلاقة بين الرجلين لم تكن مجرد تقسيم هادئ لوظيفتين. ففي خبر يرويه البكري عن جماعة، أن ابن ياسين عاتب يحيى على مباشرته القتال بنفسه؛ إذ رأى أن هلاك الأمير يعرض الجيش للهلاك.⁷⁷ وراء الخبر سؤال عملي واجه الجماعة: أين يكون قائدها حين تلتحم الصفوف؟

لا يقتضي هذا السؤال أن الشجاعة كانت غائبة، بل يدل على أن الإقدام نفسه يحتاج إلى تدبير. وليس كل موضع يصلح للجندي يصلح لمن تتعلق به قيادة الجمع. غير أن طريقة التأديب الواردة في

76 البكري، المسالك والممالك، ج2، ص859: الشاهد إثبات قيادة سابقة ليوسف من وصف البدايات.

77 البكري، المسالك والممالك، ج2، ص861: الشاهد يرويه البكري عن جماعة؛ وجوده في المصدر لا يصحح طريقة التأديب شرعاً ولا يحسم إسناده.

الرواية لا تتحول بهذا التعليل إلى حكم شرعي يُحتذى؛ مقامنا هنا فهم الخبر وحدود ما يدل عليه، مع مناقشته في حاشيته.

سجلهاسة لا تستقر من الفتح الأول

يمضي خبر البكري من هذه القيادة إلى سجلهاسة. فقد راسل المرابطون أهل المدينة ورئيسهم مسعود بن وانودين، ثم قاتلوهم، وقتل مسعود، ودخلوا المدينة وتركوا بها جماعة منهم. لكن الأمر لم ينته عند الدخول؛ إذ يذكر البكري قتل جماعة من المرابطين في المسجد بعد انصراف جيشهم، ويؤرخ ذلك بسنة 446هـ.⁷⁸ هنا يظهر الفرق بين فتح المدينة واستقرار الأمر فيها. باب يُفتح بالقوة لا يغني عن سلطان يستطيع البقاء بعد رحيل القوة.

ثم عادت الرسل تطلب من ابن ياسين إرسال العسكر، وتذكر اقتراب زناتة. وفي رواية البكري لم يقبل جميع المرابطين الدعوة إلى العودة؛ خالف بنو جدالة، واتجهوا إلى ساحل البحر، وأمر ابن ياسين يحيى بن عمر أن يتحصن بجبل لمتونة.⁷⁹ لم تكن الصفوف جسداً لا يعرف الخلاف، ولم تكن القبائل تتحرك دائماً بإرادة

78 البكري، المسالك والممالك، ج2، ص861: الشاهد إثبات اضطراب السيطرة بعد الدخول بدل تصوير فتح نهائي مستقر.

79 البكري، المسالك والممالك، ج2، ص861: الشاهد إظهار الخلاف الداخلي الذي تقرره الرواية.

واحدة. وتلك حقيقة لازمة لفهم الصعوبات التي ورثتها قيادة يوسف، لا تفصيل عارض يجوز إسقاطه من قصة النجاح.

أما ابن أبي زرع فيسوق خبر سبلماسة في ترتيب آخر: كتاب يستنجد فيه الفقهاء والصلحاء من درعة وسبلماسة، ثم تشارور المرابطين، ثم خروجهم وفتح المدينة. ويجعل ذلك سنة 447هـ، ويذكر إزالة المكوس والمغارم المخزنية فيها.⁸⁰ نحتفظ باختلاف العرض والتأريخ، ولا نجمع أجزاء الروايتين في مشهد واحد نزعم أن جميع تفاصيله متفقة. وفي كليهما تبدو الحاضرة موضع تنازع يحتاج إلى قوة، ويظهر المال والجباية جزءاً من أسباب الشكوى ومن صورة الإصلاح المروي.

أودغست خبر لا يصح أن نحو جانبه الصعب

وتنتمي إلى هذه البدايات أيضاً حملة أودغست التي يؤرخها البكري بسنة 446هـ. كانت المدينة في وصفه ذات عمران وأسواق، يسكنها عرب وزناتة، وقد ذكر في وصفها مساجد وتعليماً للقرآن.⁸¹ ثم ينقل عن دخول المرابطين خبر استباحة الحرم وجعل

80 ابن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس، نسخة 1917، ص 81، صفحة الملف 82: الشاهد المقابلة مع سنة 446هـ عند البكري؛ لا دمج صامت للروايتين.

81 البكري، المسالك والممالك، ج 2، ص 848: الشاهد؛ البكري، المسالك والممالك، ج 2، ص 862: الشاهد تمييز وصف المدينة عن خبر الفتح مع إبقاء تاريخ المصدر.

ما أصابوه فيئاً، ويدكر قتل رجل وصفه بالورع والصلاح، ويعلل ما نُقم على أهلها بتبعيتهم لملك غانة.⁸²

هذه رواية مؤلمة، ولا يسند موضعها قيادة هذه الحملة إلى يوسف. حضور الخبر في سيرة الدولة يوسع فهمنا للمرحلة، لكنه لا يجعل كل من انتسب إلى الحركة فاعلاً لكل ما جرى فيها. وتبقى دراسة ثبوت تفاصيله وأحكامها مستقلة عن واجب نقله بأمانة.

حين غاب يحيى وبقيت المسؤولية

وفي الصحراء انتهى الأمر يحيى إلى حصار بني جدالة. يذكر البكري موضعاً يسميه تيفريلي، ويؤرخ القتال بسنة 448هـ، ويذكر مقتل يحيى ومن كان معه من جمع كثير.⁸³ وكانت تلك نتيجة غيرت وضع القيادة: أمير خرجت به الجماعة إلى الفتوح، ثم لم يرجع من قتالها الداخلي.

وكان أبو بكر بن عمر حاضراً في درعة في سياق تلك الأحداث. ويجعل البكري تأميره من ابن ياسين قائماً قبل أن يورد خبر مقتل

82 البكري، المسالك والممالك، ج2، ص863: الشاهد إزالة الرواية التمجيدية المخالفة لهذا الشاهد؛ لا ينسب الفعل إلى يوسف دون شاهد يسميه.

83 البكري، المسالك والممالك، ج2، ص862: الشاهد إثبات نتيجة الخبر دون إنشاء وصية أو مشهد وداع.

يحيي، بينما يقدمه ابن أبي زرع بعد وفاة أخيه.⁸⁴ والمشارك أن مسؤولية القيادة انتقلت إلى أبي بكر، وأن ابن ياسين ظل صاحب أثر فيها. أما اختزال الانتقال في عبارة إجماع مطلق على ترتيب واحد فيخفي فرقاً في الرواية يستحق البيان.

من هنا تمضي حركة المرابطين نحو السوس وأغمات. لقد سبقت يوسف قيادة، وسبقته فتوح وانكسارات وخلافات. فلن يظهر في الصفحات التالية بانياً يبدأ من أرض لم يمسسها أحد، بل رجلاً يتقدم داخل عمل قائم؛ له رجال سبقوه، ومسائل تركوها لمن بعدهم، وخبرة عسكرية وإدارية تكونت قبل أن يستقل باسمه وسلطانة. وفي مقدمة جيش أبي بكر ستتيح لنا الرواية أن نرى موضعاً محدداً له في هذا العمل.

84 البكري، المسالك والممالك، ج2، ص862: الشاهد؛ ابن أبي زرع، الأنبس المطرب بروض القرطاس، نسخة 1917، ص81، صفحة الملف 82: الشاهد إبقاء اختلاف ترتيب الأحداث ظاهراً، لا ادعاء اتفاق كامل.

الفصل الثالث عشر في مقدمة الجيش أول المسؤوليات الظاهرة

حين توجه أبو بكر بن عمر إلى السوس، جعل على مقدمة جيشه يوسف بن تاشفين. يضع ابن أبي زرع هذا الخبر في حملة سنة 448هـ.⁸⁵ كان يوسف في موضع نتصل فيه حركة الجزء المتقدم بحركة الجيش كله، وكانت مسؤوليته عملاً مسنداً إليه من الأمير، لا لقباً تمنحه له السيرة بعد أن تعرف ما صار إليه.

والمقدمة هي القوة التي نتقدم سائر الجيش. وهذا تكليف يتطلب أن نتصل حركة المتقدمين بحركة من وراءهم. وتضع الرواية المهمة في إطارها: خرج أبو بكر إلى بلاد السوس، وكان يوسف في مقدمة القوة التي خرج بها.⁸⁶

85 ابن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس، نسخة 1917، ص 82، صفحة الملف 83: الشاهد تحديد مسؤولية مسماة ليوسف بدل قصة ترقيات غير مسندة.

86 ابن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس، نسخة 1917، ص 82، صفحة الملف 83: الشاهد شاهد السياق نفسه؛ ليس خبراً تاريخياً مستقلاً عن الحاشية السابقة.

السوس وتارودانت

يذكر ابن أبي زرع في سياق الحملة فتح ماسة وتارودانت ومعقل السوس. ويصف قتالاً في تارودانت وفتحاً عنوة، ثم يذكر إظهار السنة وإرسال العمال وأخذ الزكاة والعشر وإسقاط المغارم المحدثه.⁸⁷ تجمع الرواية هنا بين وجهين من العمل: قتال يغير صاحب السلطان، وولاية تدبر ما بعد القتال. ولا تسند كل إجراء منهما إلى يوسف شخصياً، اسم أبي بكر واسم ابن ياسين حاضران في القيادة والتوجيه.

وهذا القدر يضع يوسف في سياقه الصحيح. فهو قائد في جيش أكبر منه، ومساره يتكون داخل مسؤولية مشتركة. وليس من تمام إنصافه أن ننسب إليه وحده كل فتح وقع يوم كان في الجيش؛ كما لا يلزم من قلة التفصيل في أخبار تلك السنوات أنه كان قليل الأثر. الذي نملكه فعل محدد، فنثبته، ثم نتبع الخطوات التي جاءت بعده.

وحين توضع رواية الفتح بجوار ما أعقبها من إرسال العمال، يتبين أن الحركة خرجت من سؤال الوصول إلى سؤال البقاء. فمدينة لا تعيش على يوم انتصارها، وأهلها لا تنتهي حاجاتهم بانصراف

87 ابن أبي زرع، الأئيس المطرب بروض القرطاس، نسخة 1917، ص82، صفحة الملف 83: الشاهد نسبة السياسة إلى قيادة الحملة وابن ياسين؛ لا جعل دخول تارودانت سلبياً.

المقاتلين. تلك دلالة في ترتيب الخبر نفسه: القوة تفتح مجال الحكم، ثم تبدأ مسؤولية التعامل مع الناس والمال. وهي من المعاني التي ستستع في سيرة يوسف حين تستقل له الإمارة.

أغمات مرحلة أخرى في الطريق

بعد السوس يروي ابن أبي زرع حصار أغمات، وخروج أميرها لقوط بن يوسف إلى تادلا، ثم دخول المرابطين إليها سنة 449هـ.⁸⁸ ويذكر البكري أيضاً غزو ابن ياسين أغمات في السنة نفسها.⁸⁹ اتفاق السنة في هذين الموضعين يمنح القارئ نقطة زمنية واضحة، وإن لم يجعل سائر تفاصيل الروایتين سواء في الثبوت والاستقلال.

سيعود اسم أغمات في حياة يوسف في أبواب أخرى؛ غير أن حضورها هنا متعلق بتقدم المرابطين. وتبقى صورة هذه المرحلة في الأخبار: حملة يقودها أبو بكر، ومقدمة يسندها إلى يوسف، ومدن تدخل في السلطان المرابطي. ومن هذا الخط الواضح نستطيع أن نصل إلى الاستخلاف من غير قفزات قصصية.

88 ابن أبي زرع، الأئیس المطرب بروض القرطاس، نسخة 1917، ص 82، صفحة الملف 83: الشاهد لا يسند هذا الموضع قيادة الحملة إلى يوسف.

89 البكري، المسالك والممالك، ج 2، ص 863: الشاهد اتفاق سنة بين موضعين لا يعني استقلالهما أو صحة كل التفاصيل.

وفاة المؤسس واستمرار العمل

ثم حمل القتال الجماعة إلى برغواطة. وفيه أصيب عبد الله بن ياسين، وتوفي سنة 451هـ؛ يذكر ذلك البكري وابن أبي زرع.⁹⁰ ويورد ابن أبي زرع خبر حمله إلى المعسكر وبه رمق، ثم جمع رؤساء المرابطين ووصيتهم بالألفة، والتحذير من الاختلاف والتنافس على الرئاسة.⁹¹ لم تكن الوصية في روايته احتفالاً بما تحقق، بل نظراً إلى ما قد يفرق الباقي بعده.

يستوقف القارئ هذا الاتجاه: كان الرجل في أواخر عمره، والقتال لم ينته، ومع ذلك يتعلق جانب من الوصية بعلاقة القادة بعضهم ببعض. فضعف الجماعة قد يبدأ من داخلها وهي تنظر إلى عدو خارجها. وهذه دلالة يمكن قراءتها في الخبر، مع إبقاء ألفاظ الوصية ودرجتها في موضع التوثيق، دون أن نشئ على لسان ابن ياسين مواظم لم تنقل عنه.

90 البكري، المسالك والممالك، ج2، ص863: الشاهد ؛ ابن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس، نسخة 1917، ص84، صفحة الملف 85: الشاهد الاكتفاء بالسنة هنا، دون ترجيح يوم الوفاة بغير مقابلة موسعة.

91 ابن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس، نسخة 1917، ص84، صفحة الملف 85: الشاهد نقل مضمون الوصية منسوباً إلى رواية ابن أبي زرع، دون إنشاء ألفاظ جديدة.

ويواصل ابن أبي زرع بذكر دفن ابن ياسين وتولي أبي بكر أمر القتال بعده.⁹² ثم يظهر دور يوسف بوضوح في خبر استخلاف أبي بكر له على المغرب حين عاد إلى الصحراء.

كانت المسافة بين مقدمة الجيش وولاية المغرب مسافة في المسؤولية قبل أن تكون مسافة في الألقاب. الأول يقود قوة داخل قيادة، والثاني يصير مرجعاً لأمر واسع من البلاد. وحين نبغ هذا التحول نستطيع أن نفهم ثقله على ضوء ما سبق: جيش متعدد القبائل، ومدن لا يستقر أمرها من محاولة واحدة، وقيادة فقدت مؤسستها، وعمل يحتاج إلى استمرار. هذا هو الميدان الذي تظهر فيه كفاية الأمير، في القرار وأثره، لا في الصفات التي نكدها له قبل أن نروي خبره.

92 ابن أبي زرع، الأئيس المطرب بروض القرطاس، نسخة 1917، ص 85، صفحة الملف 86: الشاهد حدود الشاهد لا تتضمن فعلاً خاصاً ليوسف عند الوفاة.

الفصل الرابع عشر حين اتجه أبو بكر إلى الصحراء

بلغ أبا بكر بن عمر خبر اضطراب الصحراء وهو في أغمات. يروي الناصري أن رسولاً أخبره بالخلاف بين أهلها، ويصف ثقل مسؤوليتهم عليه: كانوا يتقاتلون، وهو يرى نفسه قادراً على السعي في إصلاح أمرهم. فعزم على الرجوع إليهم.⁹³

تستوقفنا هنا وجهة الحركة. فالجيش الذي اتسع له مجال العمل في المغرب لم تنقطع صلته بالبلاد التي خرج منها. وفي رواية ابن أبي زرع سار أبو بكر إلى سجلماسة، وأقام فيها يصلح شؤونها، ثم عهد إلى يوسف بأمر المغرب. ويجعل المؤرخ ذلك في ذي القعدة سنة 453هـ، ويذكر اتفاق أشياخ المرابطين على تقديمه، ثم انقسام الجيش بين الرجلين.⁹⁴

93 الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، باب عود أبي بكر إلى الصحراء، الموضع الإلكتروني 249. النص. قرئت رواية الخبر وسبب الرجوع؛ لم ننعين صفحة المطبوع في العرض، ولم تقابل صورته. المصدر متأخر، فلا يعد شاهد عيان.

94 ابن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس، نسخة 1917 المعروضة بويكي مصدر، ص 86 بحسب رقم النص المعروض، صفحة الملف 87. النص المباشر. يذكر في القعدة 453هـ وقسمة الجيش نصفين واتفاق الأشياخ. علقت أرقام عشرين وأربعين ألفاً في مشهد الوداع والتحديد الجازم لمكان مجلس لم يثبت بهذا النص. التاريخ منسوب إلى هذه الرواية، لا ترجيح نهائي بين التسلسلات المختلفة. عوين التفريغ الإلكتروني؛ لم تقابل صورة المطبوع.

ليست هذه الرواية هي الصيغة الوحيدة للخبر. ينقل ابن خلكان عن كتاب «المغرب عن سيرة ملك المغرب» قصة امرأة فقدت ناقتها في غارة وشكت انصراف أبي بكر عن بلاده؛ ويصل خبر شكواها باستخلاف يوسف وعودة أبي بكر. أصل الاستخلاف حاضر هنا أيضاً، لكن السبب يرد في صورة خبر فردي مختلف.⁹⁵

ويساعدنا هذا الاختلاف على وضع أقدامنا في موضعها: نستطيع أن نرى يوسف يتلقى مسؤولية المغرب، دون أن نختلق مجلس وداع أو نضع في فمه عهداً طويلاً. أما الوصية التي يوردها ابن أبي زرع فتأتي في سياق لقاء لاحق، حين يعود أبو بكر ويجد أن سلطان يوسف قد اتسع؛ وهناك سنقرأها في موضعها.⁹⁶

بدأت بهذا التفويض مسؤولية تتجاوز قيادة قطعة من الجيش إلى تدبير شؤون قادة وقبائل وبلاد. هذه دلالة موقع يوسف الجديد كما تصفه الرواية، لا شهادة على خواطره يوم قبله.

95 ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج 7 ص 112-113 بحسب الترقيم الإلكتروني. يصرح في ص 112 بالنقل عن «المغرب عن سيرة ملك المغرب»، ثم يورد خبر الناقة في ص 113. تعريف الواسطة، نص الخبر. مقابلة نص إلكتروني؛ خبر منقول بواسطة، لا تقرير معاصر مستقل ثبتت جميع تفاصيله.

96 ابن أبي زرع، الأئیس المطرب بروض القرطاس، نسخة 1917 المعروضة بويكي مصدر، ص 87 بحسب رقم النص المعروض، صفحة الملف 88. النص المباشر. بداية الصفحة تم لقاء العودة الذي بدأ في الصفحة السابقة؛ الوصية في هذا السياق، وليست النص المطول المنسوب إلى مجلس الاستخلاف الأول. عوين التفريغ الإلكتروني؛ لم تقابل صورة المطبوع.

الفصل الخامس عشر زينب في أخبار تلك المرحلة

يحضر اسم زينب بنت إسحاق في أخبار أبي بكر ويوسف مقترناً بالرأي والتدبير. يذكر ابن أبي زرع أن أباهما تاجر أصله من القيروان، ويصفها بالحزم والعقل والمعرفة بالأمر. هذه الصورة التي يقدمها المؤرخ تفسر عنايته بذكراها في سياق السياسة، دون أن تبيح لنا أن نزيد تفاصيل طفولتها أو مقدار مالها.⁹⁷

زواجان في سياق الرحلة

عندما عزم أبو بكر على العودة إلى الصحراء، تذكر الرواية أنه فارق زينب ووجهها إلى الزواج بيوسف بعد انقضاء عدتها. ثم يروي ابن أبي زرع زواج يوسف بها، ويعزو إليها أثراً في تدبير أمره.⁹⁸ ينقلنا

97 ابن أبي زرع، الأئيس المطرب بروض القرطاس، نسخة 1917 المعروضة بويكي مصدر، ص 85 بحسب رقم النص المعروض، صفحة الملف 86. النص المباشر. ذكر أبيها التاجر وأصله القيرواني ووصفها بالرأي، دون استنتاج مقدار ثروتها أو تفاصيل نشأتها. عوين التفريغ الإلكتروني؛ لم تقابل صورة المطبوع.

98 ابن أبي زرع، الأئيس المطرب بروض القرطاس، نسخة 1917 المعروضة بويكي مصدر، ص 86 بحسب رقم النص المعروض، صفحة الملف 87. النص المباشر. تلخيص خبر الطلاق والتوجيه إلى الزواج بعد العدة ثم الزواج بيوسف. عوين التفريغ الإلكتروني؛ لم تقابل صورة المطبوع.

الخبر بذلك من واقعة الزواج إلى دور المشورة الذي اهتم المؤرخ بإبرازه.

وهنا ينبغي أن نبقي المسافة بين الخبر وتأويله. نستطيع أن نلمح في حضورها امرأة صاحبة رأي، ولا نستطيع من المقطع نفسه أن نجعل أموالها مصدر تمويل الجيش، أو أن ننسب إليها اختيار كل قائد وموضع وكل مصاهرة. فالعبرة العامة عن حسن التدبير لا تحمل وحدها تفاصيل برنامج حكم كامل.

كما يورد ابن أبي زرع والناصري تسميةً نسبت إليها تتصل بالسحر. ورود هذا الوصف في الخبر ليس بيئة على ممارسته، ولا مسوغاً لبناء حكايات عن الجن والكنوز. الذي يمكن عرضه هنا هو وصف المؤرخين لفطنتها، مع إبقاء الرواية منسوبة إليهما وحدودها ظاهرة.⁹⁹

وفي الفصل التالي نقرأ أوضح أخبار مشورتها: يسألها يوسف عن استقبال أبي بكر عند عودته، فتجيبه في رواية تحمل توتر السلطة وحساب القوة.

99 ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص 85 بحسب النص الإلكتروني، الموضع؛ والناصري، الاستقصاء، الموضع الإلكتروني 249. كلاهما يورد الوصف في سياق الحديث عن رأيها، ولا يجعل مجرد التسمية دليلاً محققاً على فعل سحر. قرئت النصوص دون صور؛ هذا ضبط لحدود الاستدلال، لا بحث مستوعب لجميع روايات زينب.

الفصل السادس عشر يوم في حياة يوسف يوم عاد أبو بكر

خرج يوسف للقاء الرجل الذي كان قد استخلفه على المغرب. كان أبو بكر بن عمر عائداً من الصحراء، وكان في عودته سؤال لا يستطيع يوسف أن يدفعه إلى مجلس آخر: لمن يستقر الأمر الآن؟ يحفظ ابن أبي زرع رواية هذا اللقاء، ويقول إن أبا بكر أقبل بعدما سمع باتساع سلطان يوسف، يريد أن يعزله ويولي غيره.¹⁰⁰

هذا هو اليوم الذي نصحب فيه يوسف هنا: يوم لقاء محدد في رواية تاريخية، تظهر فيه صلته بمن سبقه، ومشورته، وطريقته في عرض قوته، ثم سماعه الوصية بالناس. لا نملك ساعة خروجه ولا سجل يومه من الفجر إلى الليل؛ لكننا نملك في الخبر موقفاً تتابع أفعاله، ويكشف جانباً من صاحبه لا تظهره أخبار القتال وحدها.

100 ابن أبي زرع، روض القرطاس، طبعة 1917، ص 86 المطبوعة، تفريغ الصفحة. رواية ابن أبي زرع متأخرة عن الواقعة؛ لا إسناده مفحوصاً يميز الجزم بجميع تفاصيلها، ولا دعوى لتعيين تاريخ اليوم أو استكمال يومياته. النص.

قبل أن يلتقي الرجلان

قبل اللقاء استشار يوسف زينب. ونصيحته، كما يرويها ابن أبي زرع، جمعت بين إظهار ما صار إليه من قوة وبين إكرام أبي بكر بالهدايا والأموال والثياب والطعام. وتنسب إليها الرواية معرفة بخرجه من سفك الدماء، وبما يكون مستطرفاً لديه وهو مقيم في الصحراء.¹⁰¹

ليست النصيحة تفصيلاً خارج القصة. سيظهر طرفاها معاً في اللقاء: قوة حاضرة لا يخفيها يوسف، ومال ومتاع يوجههما إلى الرجل القادم. وبين الأمرين يقع السؤال الذي يجعل الخبر حساساً: هل تنتهي مواجهة صاحب الولاية الأولى ومن اتسعت ولايته إلى خصومة، أم يجدان وجهاً يمضي به كل منهما إلى عمله؟ تصل المشورة بما سيجري بعدها، ثم تخرج بنا الرواية إلى الطريق. هناك تظهر نصيحة زينب في طريقة اللقاء، ويأتي جواب أبي بكر على ما يراه أمامه.

101 ابن أبي زرع، روض القرطاس، طبعة 1917، ص 86 المطبوعة، تفريغ الصفحة. رواية المؤلف، عرضت الأفعال بالمعنى مع حفظ الحوار القصير. النص.

سلام لا يشبه ما قبله

لما قرب أبو بكر، خرج يوسف فتلقيه. وتذكر الرواية أنه سلم عليه سلاماً مختصراً وهو راكب، ولم ينزل له. لاحظ أبو بكر هذا التغير، ورأى كثرة الجند، فسأل عنهم. وجاء جواب يوسف في الخبر: «أستعين بها على من خالفني».¹⁰²

إنها كلمات قليلة، لكنها تنقلنا إلى جوهر الموقف. لم يكن السؤال عن رجال لا يعرفون قائدهم أو عن قوة لم يتحدد عملها؛ جاء جواب يوسف ليقرر أن الجند قوة يستعين بها. وفي اجتماع الرجلين يكتسب هذا الجواب ثقله من صلتها: أحدهما كان قد أسند الأمر، والآخر يتكلم الآن عما صار في يده.

يسمي ابن أبي زرع ما وقع لأبي بكر ارتياباً من السلام على تلك الصورة ومن الجواب. تكشف الحركة المنقولة والكلمة القصيرة أن لقاء الطريق تجاوز التحية بين قريبين إلى سؤال السلطة وما استقر منها.¹⁰³

102 ابن أبي زرع، روض القرطاس، طبعة 1917، ص 86 المطبوعة، تفريغ الصفحة. رواية المؤلف، عرضت الأفعال بالمعنى مع حفظ الحوار القصير. النص.

103 ابن أبي زرع، روض القرطاس، طبعة 1917، ص 86 المطبوعة، تفريغ الصفحة. رواية المؤلف، عرضت الأفعال بالمعنى مع حفظ الحوار القصير. النص.

ما حملته الإبل

ثم ظهرت الإبل المحملة. يذكر ابن أبي زرع ألف بعير موقرة، فسأل أبو بكر عنها، وبين يوسف أنها تحمل مالا وثيابا وطعاما وإداما يعينه في الصحراء.¹⁰⁴ جاء المتاع بعد الجند في سرد الخبر، واجتمع أمام أبي بكر أمران مختلفان: قوة لا يمكن تجاهلها، وإكرام يتصل بحاجته وعمله.

تبقى القصة أضيق من أن نخولها إلى قاعدة تبرر كل وسيلة في تثبيت الحكم، وأغنى من أن نختصرها في عدد الهدايا. ما نراه فيها هو يوسف وهو يعرض واقعا جديداً ويحفظ لأبي بكر مورداً ومعونة. أما الحكم على دوافع كل حركة، وعلى كل ما سبق هذا الانتقال ولحقه، فيحتاج إلى أكثر من مشهد واحد.

لم تمض الرواية إلى قتال. انتقلت من سؤال الجيش والمتاع إلى كلام أبي بكر في الولاية. وهنا يتغير إيقاع اللقاء: تنتهي الأسئلة عما يملكه يوسف، ويبدأ الحديث عما سيحمله من تبعة.

104 ابن أبي زرع، روض القرطاس، طبعة 1917، ص 86 المطبوعة، تفرغ الصفحة. رواية المؤلف، عرضت الأفعال بالمعنى مع حفظ الحوار القصير. النص.

انزل أوصيك

قال أبو بكر، في تمة الخبر: «يا ابن عمي انزل أوصيك». فنزل يوسف ونزل أبو بكر، وفرش لهما فجلسا. وأقر أبو بكر بقاء الأمر ليوسف، ووجه إليه وصيته؛ ومن لفظها: «فاتق الله في المسلمين». ثم حمّله مسؤولية الرعية وحذره من تضييع أمورها، ودعا له بالصلاح والتوفيق والعدل.¹⁰⁵

نزل الرجلان بعدما كان ابتداء اللقاء من فوق الركاب. وبين الصورتين جرى سؤال وجواب وعرض للقوة والهدايا. لكن آخر ما يضعه الخبر بين أيدينا ليس عدد الجند ولا مقدار ما حملته الإبل؛ إنه الناس الذين ستجري عليهم أحكام هذا السلطان، والحق الذي ينبغي ألا يضيع منهم.

وبهذا تبقى الوصية أثقل من عبارة وداع. فإذا قرأنا بعدها أخبار المدن والولاة والجيوش، رأينا وراء أسماء البلاد أناساً صار تديريهم في يده، ووراء كل فتح عملاً يجب أن يقوم به بعد انقضاء القتال. هذا معنى نستخلصه من موقع الوصية في القصة؛ أما ألفاظها وأفعال اللقاء فتبقى منسوبة إلى راويها.

105 ابن أبي زرع، روض القرطاس، طبعة 1917، ص 87 المطبوعة، تفرغ الصفحة. الألفاظ القصيرة مطابقة للتفريغ الإلكتروني؛ بقية الوصية بالمعنى. النص.

ثم ودع أبو بكر يوسف وانصرف إلى الصحراء، بحسب الرواية.¹⁰⁶
وتنتهي صحبتنا لهذا اليوم عند هذا الاقتراق وقد اتسعت الصورة:
رأينا يوسف يستشير، ويستقبل، ويجيب، ويظهر ما في يده، ثم
ينزل ليسمع ما ينبغي عليه.

وسيواصل الكتاب السير معه في بناء المدن وتوزيع المسؤولية والعبور
إلى الأندلس. أما هذا اللقاء فيظل حاضراً عند قراءة ما يأتي:
القدرة التي استقرت له ليست آخر القصة؛ إنها أول سؤال عن
استعمالها.

106 ابن أبي زرع، روض القرطاس، طبعة 1917، ص 87 المطبوعة، تفريغ الصفحة. رواية المؤلف، عرضت الأفعال بالمعنى مع حفظ الحوار القصير. النص.

الفصل السابع عشر اتساع الإمارة وتوزيع المسؤولية

لا يكتمل سلطان بفتح مدينة ثم مغادرتها. وراء القوة التي تدخل الأبواب عمل أقل صحباً: تعيين من يدير، ومتابعة من ولي، ومعرفة أحوال الناس بعد انقضاء القتال.

يذكر ابن أبي زرع أن يوسف استدعى أمراء المغرب وأشباه القبائل سنة 464هـ، فقدموا عليه وبايعوه، ثم خرج معهم يتفقد أعماله وينظر في سيرة الولاة. الخبر يجمع البيعة والجولة في حركة واحدة من حركات الحكم؛ ولا ينقل لنا نص ميثاق طويل أُلقي يومها.¹⁰⁷

ثم يعرض الناصري توزيعاً للولايات في سنة 467هـ: سير بن أبي بكر على مكاسة وما ذكره من أعمالها، وعمر بن سليمان على فاس وأحوازها، وداود بن عائشة على سجلماسة ودرعة، وتميم بن يوسف

107 ابن أبي زرع، الأئیس المطرب بروض القرطاس، نسخة 1917 المعروضة بويكي مصدر، ص 91 بحسب رقم النص المعروض، صفحة الملف 92. النص المباشر. يسوق قدوم الأمراء والأشباخ والبيعة سنة 464هـ؛ وينص على الطواف والتفقد. لا يتضمن صيغة البيعة والخطبة المطولتين. عوين التفریغ الإلکترونی؛ لم تقابل صورة المطبوع.

على مراکش وأغمت ومناطق أخرى يسميها.¹⁰⁸ وتبدو في هذا التوزيع بلاد متعددة تحتاج إلى رجال يتولون شؤونها؛ لم يعد ذكر يوسف وحده كافياً لشرح طريقة سيرها.

هذه الأسماء تعيدنا إلى سؤال المسؤولية. نجاح القائد في موضع لا يغنيه عن إحسان الاختيار في الموضع التي يغيب عنها. وربط الولاية بالتفقد، كما تجاور الخبرين في السيرة، يفتح للقارئ هذا المعنى العملي؛ ولا يجعل كل إجراء إداري حديث جزءاً من النظام الرباطي.

ومن جهة أخرى يصف ابن أبي زرع صلة يوسف بالعلماء وإسناد أحكام البلاد إلى القضاة. نستطيع أن نرى من هذه الرواية وزن العلم والقضاء في صورته السياسية، لكن وصف الصلة لا يثبت وحده وجود مجلس ذي عضوية ثابتة أو نظام تفصيلي نعرف نصوصه.¹⁰⁹

108 الناصري، الاستقصاء، الموضع الإلكتروني 259. قرئت قائمة الولايات في حوادث 467هـ، ومنها اسم داود بن عائشة، رجحت هذه القراءة في المتن على تشوش تفرغ روض القرطاس لهذا الاسم، دون دعوى مقابلة المخطوطات. الأقاليم المذكورة في المتن أمثلة، لا قائمة كاملة.

109 ابن أبي زرع، الأئيس المطرب بروض القرطاس، نسخة 1917 المعروضة بويكي مصدر، ص 88 بحسب رقم النص المعروض، صفحة الملف 89. النص المباشر. رد الأحكام إلى القضاة وتقريب أهل العلم واردة وصفاً عاماً، لا يثبت منهما نظام مجلس دائم ولا يثبت هذا الموضع قولاً ليوسف بلفظه. عوين التفرغ الإلكتروني؛ لم تقابل صورة المطبوع.

لقد كبر نطاق الحكم، وكثرت الجهات التي يتصل بها القرار. ومن هنا يصبح بناء حاضرة يستقر فيها الأمر جزءاً ظاهراً من سيرة الرجل. تلك الحاضرة هي مراکش؛ وسنقترب من بدايتها بما حفظته الأخبار، دون أن نحمل النواة الأولى كل ما ظهر في المدينة بعد أجيال.

الفصل الثامن عشر مراكش المدينة التي بدأت بالخيام

تلتقي المصادر المذكورة هنا على صلة يوسف ببناء مراكش، لكنها تختلف في تأريخ بدايتها. يجعل ابن أبي زرع شراء موضعها سنة 454هـ، بينما يذكر الذهبي سنة 465هـ للاختطاط. وبين التاريخين مسافة لا تحوها رغبتنا في خط زمني سهل؛ لذلك نبقي اختلافهما ظاهراً.¹¹⁰

ويروي الناصري أن يوسف أراد موضعاً يأوي إليه جنده وحشمه، فاشترى الأرض من أصحابها من المصامدة، ونزل فيها بخيام الشعر. كما ينقل خبراً عن ابن دحية يجعلها مزرعة لأهل نفيس اشتراها يوسف بمال خرج به من الصحراء.¹¹¹ تضعنا هذه الأخبار أمام شراء واستقرار وبداية بناء، قبل القصور والمعالم التي ستراكم في تاريخ المدينة.

110 ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص 89 في النص المعروض، صفحة الملف 90؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج 19 ص 252-253 في العرض الإلكتروني، ترجمة صاحب الغرب. الأول يذكر 454هـ والثاني 465هـ. الخلاف بين الروايتين قائم، ولا يجزم هنا ببطلان إحداها.

111 الناصري، الاستقصا، باب بناء مراكش، الموضع الإلكتروني 253. يذكر غرض الإيواء وشراء الموضع ونزول الخيام؛ وينقل خبر أهل نفيس عن ابن دحية. التلخيص يميز خبر المؤلف من نقله بواسطة؛ لم تعين نسخة النبراس نفسها.

مسجد وماء ومكان للسلاح

في رواية ابن أبي زرع بن يوسف مسجداً وقصبة صغيرة لا خزان المال والسلاح. ويذكر المؤرخ أن الناس حفروا الآبار فوجدوا الماء قريباً، فاستوطنوا الموضع.¹¹² يظهر الماء هنا في صميم الخبر؛ فالمعسكر يحتاج إلى ما يقيم حياة المقيمين فيه، كما يحتاج إلى موضع الصلاة وحفظ الموارد.

وحين شرع بناء المسجد، يصف ابن أبي زرع مشاركة يوسف بيده في الطين والبناء مع العاملين.¹¹³ يكفي هذا الفعل ليقرب إلينا صورة الأمير في ذلك الموضع. لا يلزمنا أن نضيف حمل اللبن على الكتف أو تسابق العشائر أو قصة عن أجور يومية حتى نفهم معنى المشاركة.

ومن هذه النواة يمكن أن نتأمل صعوبة التأسيس: المدينة لا تأتي إلى مؤسسها مكتملة المرافق. يتعين فيها مكان للعبادة، وموضع لحفظ ما يحتاج إليه الحكم، وماء تقوم عليه الإقامة؛ ثم نتسع حياة

112 ابن أبي زرع، الأئیس المطرب بروض القرطاس، نسخة 1917 المعروضة بويكي مصدر، ص 89 بحسب رقم النص المعروض، صفحة الملف 90. النص المباشر. ينسب النص حفر الآبار إلى الناس، ويذكر إنشاء المسجد والقصبة وحفظ المال والسلاح.

113 ابن أبي زرع، الأئیس المطرب بروض القرطاس، نسخة 1917 المعروضة بويكي مصدر، ص 89 بحسب رقم النص المعروض، صفحة الملف 90. النص المباشر. ورد عمله في الطين والبناء بيده مع الخدمة. تلخيص بالمعنى، لا يثبت حمل اللبن أو تغليل الحركة بالتأسي أو الاستجابة الجماعية التي لا يذكرها الخبر. عوين التفرغ الإلكتروني، لم تقابل صورة المطبوع.

الناس بما يتتبع من العمل. هذا تأمل في عناصر الخبر، لا وصف
لمخطط هندسي وصل إلينا.

أثر يتجاوز عمر صاحبه

يصرح ابن أبي زرع بأن المدينة لم يكن عليها سور في عهد يوسف،
وينسب بناء سورها إلى ابنه علي، ثم يذكر ما أضافه الموحدون من
بعد.¹¹⁴ ومن المفيد أن نرى مراکش بهذا الامتداد: مؤسس يضع
نواة، وآخرون يوسعون ويغيرون، ومدينة يبقى اسمها بعد ذهاب
البناء.

أما الذهبي فيختصر موقعها في حياة يوسف بأنها دار ملكه.¹¹⁵
وهنا يستقر معنى الأثر: لم تكن مراکش موضع عبور في سلسلة
حملاته، بل موضعاً ارتبط باسمه وبالحكم الذي أقامه. ومن مركز
الاستقرار هذا نعود إلى حركاته في بقية المغرب، وإلى المدن
والموانئ التي فتحت لسيرته مجالاً جديداً.

114 ابن أبي زرع، الأئیس المطرب بروض القرطاس، نسخة 1917 المعروضة بويكي مصدر،
ص 89 بحسب رقم النص المعروض، صفحة الملف 90. النص المباشر. ينسب السور إلى علي
ويؤرخه 526هـ ويذكر إضافات الموحدین. الشاهد على نسبة السور إلى عهد علي، دون الجزم هنا
بسنة بنائه. عوین التفریغ الإلكتروني، لم تقابل صورة المطبوع.

115 الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج 19، أول ترجمة صاحب الغرب في العرض الإلكتروني.
النص.

الفصل التاسع عشر من فاس إلى أبواب البحر

تقدم أخبار فاس صورة لا يصح اختزالها في ظفر سريع يعقبه هدوء شامل. يميز ابن أبي زرع فتحها سنة 462هـ بوصفه الفتح الثاني، ويصف دخولاً عنيفاً وقتلاً كثيراً. هذه الشدة جزء من روايته، فلا نستبدل بها مشهد أمان عام لا يثبتته الموضع.¹¹⁶

ثم يروي إزالة الحواجز بين عدوتي القرويين والأندلس وجعلهما مدينة واحدة، ويتبع ذلك بذكر إصلاح الأسواق وإنشاء مرافق منها المساجد والحمامات والفنادق والأرحاء.¹¹⁷ نرى في نتاج الخبرين انتقالاً من القتال إلى تدير المدينة؛ ولا يلغي هذا الثاني ما قاله المصدر في الأول.

116 ابن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس، نسخة 1917 المعروضة بويكي مصدر، ص 91 بحسب رقم النص المعروض، صفحة الملف 92. النص المباشر. فتح 462هـ ووصف الشدة والقتل. لم تنقل الأرقام الكبيرة إلى المتن بوصفها إحصاءً متحققاً، ولم توصف الواقعة بالأمان العام. عوين التفرغ الإلكتروني؛ لم تقابل صورة المطبوع.

117 ابن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس، نسخة 1917 المعروضة بويكي مصدر، ص 91 بحسب رقم النص المعروض، صفحة الملف 92. النص المباشر. الأفعال العمرانية مسماة؛ لا تعني عدالة كل إجراء من إجراءات الفتح أو اكتمال تحقيق الرواية. عوين التفرغ الإلكتروني؛ لم تقابل صورة المطبوع.

العمل بعد الفتح

أوضح ما يقدمه هذا الخبر للقارئ هو اختلاف نوع العمل: اقتحام مدينة شيء، والنظر في معيشة أهلها وتنظيم مرافقها شيء آخر. وتلك زاوية لقراءة سيرة يوسف؛ كيف نتصل القوة بالبناء، وما الذي يبقى بعد انصراف الجيوش؟

لا يجيبنا الموضع بكل التفاصيل التي نتمنى معرفتها. فهو لا يصف مجلساً للمهزالم أنشئ يومئذ، ولا يثبت بناء قناطر حجرية أو سور خارجي جامع في المناسبة نفسها. نبقى الصورة عند الأفعال التي سماها الراوي، وتظل المرافق المذكورة كافية لفهم أن الخبر يتجاوز المعركة إلى عمران المدينة.

تلمسان وأثر البناء

وفي الشرق تتعدد الأخبار عن تلمسان. يروي ابن أبي زرع حملة لمزدلي سنة 472هـ، ثم يسوق سير يوسف إليها في حوادث سنة 474هـ، وعودته إلى مراكش سنة 475هـ. أما المادة العربية للديوان الوطني للسياحة بالجزائر فتربط بدء جامع تلمسان باستيلائه

عليها سنة 475هـ/1082م؛ فلا ندج الحملات والتواريخ في واقعة واحدة بلا تمييز.¹¹⁸

وتنسب المادة نفسها زيادة البناء والزخرفة إلى علي بن يوسف سنة 530هـ/1136م، وهو التاريخ الذي يورده متحف المتروبوليتان ضمن عرضه للعمارة المرابطية بتلمسان.¹¹⁹ هكذا يبقى أثر الأب وابنه متصلاً دون أن نضع كل ما نراه من عمارة لاحقة في يد رجل واحد.

طنجة ثم سبتة

كان الاقتراب من البحر فضلاً آخر في اتساع السلطان. يروي ابن أبي زرع دخول المرابطين طنجة بعد قتال انتهى بمقتل حاكمها، وبقاء سبتة تحت حكم ابنه. ويفصل بين خبر المدينتين؛ فالوصول إلى إحداهما لا يعني أن الأخرى صارت في اليد في اليوم نفسه.¹²⁰

118 ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص 92 بحسب العرض، صفحة الملف 93، يميز حملة مزديلي 472هـ وسير يوسف 474هـ والرجوع 475هـ. وقورن بالنسخة العربية من بطاقة الديوان الوطني للسياحة التي تذكر 475هـ/1082م. التواريخ منسوبة إلى مصدرها، ولا تسوية بين مراحل متعددة بمجرد تشابه اسم المدينة. لم تعتمد الترجمة الإنجليزية الآلية عند وجود الأصل العربي.

119 الديوان الوطني للسياحة بالجزائر، «مسجد تلمسان الكبير وراث المرابطين»، 25 يوليو 2025، النص العربي. ومتحف المتروبوليتان، قسم الفن الإسلامي، 1 أكتوبر 2001، المقال. قبل تاريخ 1136م؛ هذه معانية وصف مؤسسي للعمارة، لا مقابلة نقش أو مسح أثري جديد.

120 ابن أبي زرع، الأئيس المطرب بروض القرطاس، نسخة 1917 المعروضة بويكي مصدر، ص 92 بحسب رقم النص المعروض، صفحة الملف 93. النص المباشر. بداية الصفحة تم خبر

ثم يذكر أن يوسف بعث ابنه إلى سبتة، وأن فتحها وقع في ربيع الأول سنة 477هـ. وفي السياق نفسه تصل أخبار الاستنصار من الأندلس، ويظهر إعداد السفن واتباع وصول الجند قبل العبور.¹²¹ لا نأخذ من هذا الموضع كل تاريخ وكل تفصيل على درجة واحدة؛ لكنه يرسم بوضوح اتصال شأن الساحل بباب الأندلس.

ومن زاوية التدبير يمكن فهم أهمية الميناء هنا: الإقدام على حرب وراء البحر يتطلب طريقاً يصل إليه الجيش، وسفنًا تحمله، وموضعاً ينزل فيه. هذه قراءة لمعنى الأفعال التي يرويها المؤرخ، دون أن ننسب إلى يوسف خطة مكتوبة لم نعر عليها.

بهذا يصل مسارنا إلى العدو الأخرى. لم تعد الأندلس اسمًا يأتي في رسائل الاستغاثة وحدها؛ أصبحت أرضاً يتجه إليها الجند، ويستعد يوسف للحاق بهم. وهناك ستلتقي سيرة الأمير بتاريخ ملوك الطوائف، وتبدأ أسئلة النجدة والحكم التي لا يفي بها خبر المعركة وحده.¹²²

طنجة وتفصل بقاء سبتة بيد ابن الحاكم. فتح طنجة لا يعني دخول سبتة معها في الوقت نفسه. عوين التفرغ الإلكتروني؛ لم تقابل صورة المطبوع.

121 ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص 93 بحسب النص المعروف، صفحة الملف 94. النص المباشر. يذكر بعث ابن يوسف وفتح سبتة في ربيع الأول 477هـ. التفرغ يقرأ اسم الابن «المعز»، بينما قائمة الأبناء في ص 88 تقرأ «المعز»؛ لذلك اكتفى المتن بلفظ ابنه، ولم يجزم بضبط الاسم لاختلافه في التفرغ. لا يعتمد هذا الاستشهاد تواريخ طليطلة المضطربة في السياق.

الفصل العشرون الجيش صفوف تقاتل وقيادة تجمع

لم يبدأ نظام القتال عند المرابطين يوم انفرد يوسف بإمارة المغرب. فالبكري، وهو يصف حركتهم الأولى، يذكر قتالهم على الخيل والإبل، وأن أكثر قتالهم مشاة مصطفىين: في الصف الأول رماح طويلة، وفي الصفوف التالية مزاريق يحمل المقاتل منها عدة يقذفها.¹²³ كان يوسف إذن يتقدم في جماعة لها خبرة سابقة في الحرب؛ وما أضافته أيامه من توسع ينبغي أن يقرأ على هذا الأصل.

وفي وصف البكري رجل يحمل الراية أمام الصف: يقف المقاتلون ما دامت منتصبه، فإذا أمالها جلسوا جميعاً، ولا يتبعون من فر أمامهم.¹²⁴ تجتمع في هذه الصورة ثلاثة أمور ظاهرة: ترتيب

122 ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص 93 بحسب النص المعروف، صفحة الملف 94. النص المباشر. يذكر التهيؤ بالسفن واجتماع الجنود وتقديمهم قبل جواز يوسف. لم يدمج دعاء العبور واليوم المحدد في هذا الفصل تجنباً للتكرار والجزم قبل إتمام المقارنة. عوين التفريغ الإلكتروني دون صورة المطبوع.

123 البكري، المسالك والممالك، ج 2، ص 860: الشاهد تصحيح نسبة النظام إلى البدايات؛ المزاريق رماح قصيرة مقدوفة وليست سهاماً.

124 البكري، المسالك والممالك، ج 2، ص 860: الشاهد الشاهد على طريقة القتال التي وصفها البكري، دون تفاصيل عن لون الراية ونقشها.

للمقاتلين، وسلاح تختلف وظيفته بحسب موضع صاحبه، وإشارة يفهمها الجمع. الراية هنا وسيلة لتوجيه الحركة، قبل أن تكون صورة تزين خبر النصر.

ومن هذا الوصف يمكن فهم قيمة الثبات مع الجماعة. فقد يجد المقاتل أمامه خصماً يفر، وتدعوه قدرته إلى مطاردته، لكن بقاءه مع الصف يحفظ القوة التي دخل بها القتال. وهذه قراءة لمعنى الترتيب الذي وصفه البكري، لا قاعدة ننسبها إلى جميع معارك المرابطين؛ فالميدان يتغير، وتختلف الأرض والعدو والغاية.

حين نتعدد الرايات تحت إمرة واحدة

ومع يوسف تتسع الصورة. يروي ابن أبي زرع أنه كثر القادة، واتخذ الطبول والبنود، وأخرج العمال وكتب العهود، ويزكر في جيشه جماعات من صنهاجة وجزولة والمصامدة وزناتة.¹²⁵ لم يعد السؤال مقدار ما تجتمع عليه القبيلة الواحدة من الرجال، بل كيف تعمل جماعات مختلفة تحت قيادة تستطيع توجيهها إلى جهات متعددة.

125 ابن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس، نسخة 1917، ص 89، صفحة الملف 90: الشاهد لم تعتمد أعداد الجيش الضخمة ولا لفظ «الأغزان» الوارد في التفرغ؛ يحتاج كل منهما تحقيقاً مستقلاً.

وفي خبر من أخبار الجبهة الشمالية يسمي ابن أبي زرع صالح بن عمران قائداً لجيش بعثه يوسف، ويميز داخل ذلك الجيش بين المرابطين ومقاتلين من سائر قبائل المغرب.¹²⁶ تظهر هنا القيادة بالتفويض: أمير يقرر الوجهة، وقائد يحمل مسؤولية الحملة، وجند لا تجمعهم نسبة قبلية واحدة. وما يربط هذه الأطراف هو استمرار الأمر بعد خروج الجيش من مجلس الأمير.

لا تعطي هذه الأخبار قائمة كاملة بوظائف الجيش وأرزاق رجاله، لكنها تكشف انتقالاً في مقدار المسؤولية. فالذي يقود مقدمة جيش يستطيع أن يرى أكثر رجاله قريباً منه؛ والذي تتوزع قواته على البلاد يحتاج إلى رجال يثق بقدرتهم، ويحاسبهم على ما يترتب على أعمالهم. هنا تصبح معرفة القائد بمن يوليهم بعضاً من قوته، ويصبح الخطأ في الاختيار كلفة يدفعها من يقاتل ومن يسكن البلاد التي يقع فيها القتال.

ما تقوله الهزيمة أيضاً

وليس خبر الجيش كله انتصاراً. ففي سياق الصراع حول فاس يذكر ابن أبي زرع لقاءً بوادي صيغير انهزم فيه المرابطون وقتل جماعة من فرسانهم. وبلغ الخبر يوسف وهو يحاصر قلعة مهدي،

126 ابن أبي زرع، الأبنس المطرب بروض القرطاس، نسخة 1917، ص 91، صفحة الملف 92: الشاهد إثبات التفويض والتعدد؛ لم يعتمد التعداد الوارد بالخبر.

فارتحل عنها وترك قوة تواصل حصارها.¹²⁷ لا يحتاج فهم هذه الواقعة إلى تهويل الهزيمة ولا إلى إخفائها. إنها تبين أن توزيع القوات يضع الأمير أمام وقائع تحدث وهو بعيد عنها، وأن فتح ناحية قد يتزامن مع تعثر ناحية أخرى.

وتدل الرواية على بقاء الحصار بعد رحيل يوسف، وهو جانب آخر من توزيع العمل. فحضور الأمير ليس شرطاً لبقاء كل مهمة، ما دام هناك من يحمل أمرها بعده. أما امتدادها ونتيجتها فيرجعان إلى خبر الحملة نفسه، ولا يصح أن نجعل كل قرار شاهداً مسبقاً على كمال التخطيط. قد يصبر الجيش ويطول عليه الأمر، وقد ثبت جماعة في موضع ويحتاج غيرها إلى المدد.

وللقوة العسكرية امتحان خارج المواجهة كذلك: أثرها في الناس. ينقل ابن خلكان أن يوسف تحرى، في مسيره إلى لقاء جيش ألفونسو، الطريق المكشوف من غير مرور بمدينة أوستاق.¹²⁸ هذا تدبير مخصوص في حملة مخصوصة؛ وتظهر قيمته حين نتذكر ما يستلزمه مرور جيش من زاد وماء ونزول. ومنه يفتح سؤال صيانة

127 ابن أبي زرع، الأنبس المطرب بروض القرطاس، نسخة 1917، ص 90، صفحة الملف

91: الشاهد إثبات الهزيمة كما ترد في المصدر وعدم تعميم عدم الانكسار.

128 ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج 7، ص 117، أخبار الزلافة: الشاهد خبر خاص بجملة؛ لا يثبت نظام تموين شاملاً ولا انعدام تعديات الجيش.

أهل البلاد، من غير أن نحوله إلى شهادة بأن أحداً من الجند لم يتعد قط.

فالذهبي، مع ما ذكره من قوة جيوش يوسف وشجاعتها، يورد في وصفها العتو والعسف.¹²⁹ يجتمع في صفحة التاريخ مدح القدرة وذم بعض استعمالها. وليس في ذلك ما يفسد السيرة؛ بل به تكتمل مسؤولية صاحب السلطان: أن يجد من يدفع به العدو، وأن يكف به الأذى، وأن يبقى عدل القوة موضع نظر مهما كبرت انتصاراتها.

كان الجيش أحد أسباب اتساع سلطان يوسف، لكنه لم يكن الدولة كلها. فمن ورائه مال يجمع وينفق، وولاة يدبرون، وبلاد تتأثر بالحرب والسلام. وحين ننتقل من خبر الصفوف إلى خبر الخزائن نبقى مع السؤال نفسه في وجه آخر: كيف يحفظ الأمير ما اجتمع في يده من قوة، ولأى غاية يستخدمه؟

129 الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج 19، ص 253-254، ترجمة «صاحب الغرب»: الشاهد إبقاء النقد المنقول وعدم تزكية سلوك جميع الجند بإطلاق.

الفصل الحادي والعشرون المال حق الأخذ ومسؤولية الإنفاق

سبق الحديث عن إسقاط المغارم استقلال يوسف بإمارة المغرب. ففي وصف البكري لبدديات حركة المرابطين خبر رد المظالم وإزالة ما يروونه من الضرائب المخالفة، وفي رواية ابن أبي زرع عن فتح السوس يرد أمر عبد الله بن ياسين بإبقاء الزكاة والأعشار وإزالة ما سواها من المغارم المحدثه.¹³⁰ دخل يوسف المسؤولية في هذا المناخ، وكانت له صلة به من موقعه في مقدمة جيش أبي بكر؛ أما صياغة تلك الأوامر الأولى فتنسب في الخبر إلى ابن ياسين.

وفي ترجمة يوسف عند ابن أبي زرع يعود المعنى نفسه أوسع نطاقاً. يصف المؤرخ بلاده بأنها خلت من المكوس، ثم يسمي ما كان يؤخذ فيها: الزكاة والعشر وجزية أهل الذمة وخمس الغنائم.¹³¹ هذا نص في تقويم سياسته المالية، ترويه لنا أخبار الدولة؛ وليس بين أيدينا معه سجل مفصل بكل ما جني من كل ناحية. نحفظ

130 البكري، المسالك والممالك، ج2، ص858: الشاهد ؛ ابن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس، نسخة 1917، ص82، صفحة الملف 83: الشاهد تمييز أسبقية البرنامج عن تنفيذ يوسف له؛ لا ينسب الأمر الأول إليه.

131 ابن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس، نسخة 1917، ص88، صفحة الملف 89: الشاهد نقل بالمعنى.

للسهادة قيمتها، وتبعتها في الباب الذي نتحدث فيه: حصر الجباية، في وصف المؤرخ، فيما عده من الموارد المشروعة.

المال الذي لا يؤخذ

ليس أثر الحكم في حياة الناس فيما يبنيه وحده، بل فيما يكف يده عنه أيضاً. فالفلاح والتاجر وصاحب الصنعة يحتاجون إلى معرفة ما يطلب منهم، وإلى أن يبقى لهم ما وراء الحق الواجب. وفي هذا المعنى تظهر منزلة خبر إسقاط المكوس: إنه يتحدث عن حد يوضع ليد السلطان حين تمتد إلى أموال رعيته.

غير أن قلة الأبواب التي تجمع منها الجباية لا تعني انعدام أعباء الدولة. فالجيش والولاية والعمران كلها تحتاج إلى موارد. ومن هنا يصبح حسن التدبير جمعاً بين حقين: ألا يؤخذ المال بغير حق، وألا يضيع ما أخذ بحق. وبينهما تظهر صعوبة الحكم؛ فقد يسهل وعد الناس بتخفيف أعبائهم، ثم يختبر صدق الوعد حين تجتمع حاجة الجند وكلفة المدن ومطالب أصحاب النفوذ.

وتحفظ ترجمة ابن أبي زرع خبراً محدداً في جانب الإنفاق: أن يوسف قرب الفقهاء والعلماء والصلحاء وأجرى عليهم أرزاقاً من

بيت المال.¹³² يثبت هذا القدر في روايته، من غير أن يعطينا مقادير تلك الأرزاق أو قائمة بمن شملتهم. ومعناه في صورة الحكم أن صلة الأمير بأهل العلم لم تبق مجرد مجلس يستمع فيه إليهم، بل كان لها وجه مالي يذكره المؤرخ.

مدينة تحتاج إلى عمارة

وفي مراکش يروي ابن أبي زرع بناء مسجد وقصبة لحفظ المال والسلاح، ثم حفر الناس الآبار واستيطان الموضع.¹³³ تتجاور في هذا الخبر حاجات الصلاة والحماية والماء. ولا يبين النص حساب كل نفقة أو الجهة التي حملتها، لكنه يخرجنا من الحديث المجرد عن خزينة ممتلئة إلى أشياء تحتاجها مدينة تنشأ.

وفي فاس يذكر إصلاح الأسواق وبناء الحمامات والفنادق والأرحاء بعد دخول يوسف المدينة.¹³⁴ تأتي هذه الأعمال في المصدر نفسه بعد أخبار القتال والقتل، فلا تحو العمارة ما تقدمها من عنف. لكنها تبين أن بقاء المدينة تحت الحكم يقتضي أكثر من

132 ابن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس، نسخة 1917، ص 88، صفحة الملف 89: الشاهد لا مقادير رواتب، ولا تعميم على مؤسسات وأوقاف غير مذكورة.

133 ابن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس، نسخة 1917، ص 89، صفحة الملف 90: الشاهد أعمال عمران؛ لا يثبت النص ميزانية ولا مصدر نفقة كل عمل.

134 ابن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس، نسخة 1917، ص 91، صفحة الملف 92: الشاهد الشاهد على خبر البناء في سياق القتال، ولا يثبت رخاء اقتصادياً شاملاً.

وضع حامية فيها: يحتاج الناس إلى سوق يعمل ومرافق ينتفعون بها، ويحتاج السلطان إلى أن تتحول سيطرته إلى تدبير للحياة اليومية.

ولهذا لا يستقيم قياس السياسة المالية بكثرة ما بقي في الخزائن وحدها. المال الذي يمنع الخراب، أو يصلح سوقاً، أو يسد حاجة عامة، قد يظهر أثره في الناس ولا يبقى عدداً يحصى بعد وفاة صاحبه. والمال الكثير قد يجتمع كذلك مع حاجة لم تقض؛ فلا يغني المجموع عن السؤال عن مصدره ومصرفه.

الدينار الذي بقي

ومن أخبار المال إلى أثره المحسوس نصل إلى المسكوكات. تورد بطاقة فهرسية لنوع من دنانير يوسف في Numista وزناً قدره 4.15 غرام.¹³⁵ قيمة هذه المعلومة في تحديد الشيء الذي تصفه؛ أما أوزان دور الضرب المختلفة ونسب نقاء قطعها فتحتاج إلى دراسة قطع معلومة. فلا يحسن أن تتحول بطاقة نوع واحد إلى حكم على كل ما ضرب في عقود الدولة.

ويتيح الدينار سؤالاً آخر غير وزن الذهب: من يعلن سلطانه على وجه النقد؟ سيأتي خبر الاسم واللقب ورابطة الخلافة في موضعه

135 Numista، بطاقة نوع «1 Dinar – Yusuf ibn Tashfin»، خانة الوزن: الشاهد بطاقة فهرسة ثانوية، لا معاينة قطعة ولا تحليل معدن؛ ولا تعمم أوصاف هذا النوع على جميع مسكوكات الدولة.

من السيرة. وهنا يكفيننا أن النقد أثر يمكن الرجوع إليه خارج عبارات المدح، وأن جمعه مع الرواية المكتوبة يفتح باباً لفهم الدولة ومعاملات الناس فيها.

وثمة موقف يرويهِ ابن خلكان في غنائم الزلافة: أن يوسف آثر بها ملوك الأندلس وأعرض عن أخذها لنفسه.¹³⁶ يحتفظ الخبر بحدوده وبدلالاته معاً؛ فهو موقف من مال وقعة بعينها، وفيه تقديم لغرض النجدة على الاستئثار بالمغنم. ولا يحتاج هذا الموقف إلى أن نجعل صاحبه معرضاً عن كل مال في كل حال حتى يبقى جديراً بالنظر.

هكذا تتكون صورة السياسة المالية من شواهد متفرقة: خبر عن كف المكوس، وآخر عن أرزاق أهل العلم، وآثار لعمارة المدن، ومسكوك يحمل علامة السلطة، وموقف من غنيمة. وبينها مساحة تحتاج إلى بحث. وما يظهر من هذه الشواهد أن المال كان في قلب مسؤولية يوسف؛ به تتحرك القوة، وتقوم المصالح، ويختبر العدل فيما يؤخذ من الناس وما يعود إليهم.

136 ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج 7، ص 117، أخبار الزلافة: الشاهد رواية موقف مخصوص؛ لا تعميم الزهد على كل مال أو إسناد نيات زائدة.

الفصل الثاني والعشرون العلماء في مجلس القرار

كان في أصل الحركة المرابطية سؤال عن العلم: من يذهب إلى القوم فيعلمهم؟ وعندما استقر السلطان ليوسف بقي حضور أهل العلم من أبرز ما حفظته ترجمته. ينقل ابن خلكان عن ابن الأثير أنه كان يميل إلى أهل الدين والعلم، ويكرمهم ويصدر عن آرائهم.¹³⁷ لم يعد العلم في هذه المرحلة حاجة أفراد يتعلمون؛ صار متصلاً بالقضاء والمال والحرب، وبأعمال تمس جماعات واسعة من الناس.

ويصف ابن أبي زرع صلة يوسف بالفقهاء وأهل الدين والقضاة، وتعظيمه لهم وسؤاله عن أمور الدين وإجراء الأرزاق عليهم.¹³⁸ في هذا الوصف رغبة في تقريب المعرفة ممن يملك التنفيذ. فالعالم يستطيع بيان الحكم، ولكن رفع مظلة أو إنفاذ قضاء أو كف صاحب سلطة يحتاج إلى من يجعل للبيان أثراً في الواقع.

137 ابن خلكان، وفيات الأعيان، 7/125، نقلاً عن ابن الأثير في حوادث سنة 500هـ. النص.

138 ابن أبي زرع، روض القرطاس، طبعة 1917، ص 88، وصف الصلة بالفقهاء والقضاة. النص.

ولا يختزل هذا الاتصال مسؤولية الأمير. فالرأي يحتاج إلى تصور صحيح للحادثة، والحادثة قد تصل إلى الفقيه على لسان أحد أطرافها، ثم يحمل القائد تبعه التنفيذ. وسيظهر ذلك عند حصن لبيط، حين رفع المعتمد خصومته مع ابن رشيق، واستنقى يوسف الفقهاء، ثم أمر بالقبض على الرجل وتسليمه إلى المعتمد مع نبيه عن قتله.¹³⁹ حفظ الخبر أصل الاستفتاء وقيداً في التنفيذ، ثم حفظ ما ترتب على الحادثة من انقطاع الميرة عن المعسكر. وهكذا تبقى النتيجة العملية جزءاً من النظر في القرار.

كان على يوسف أن يجمع بين سلطته العسكرية وصلته بأهل العلم، وأن يعمل في بلاد مختلفة الموروث والأحوال. وما نعرفه من احترامه العلماء لا يعطينا قائمة ثابتة بكل من حضر مجلسه، ولا يجعل كل سياسة إجماعاً فقهياً. إنما يقرب إلينا سمة في طريقته، ثم يدعوننا إلى تتبع أثرها حيث حفظت المصادر واقعة محددة.

وفي أواخر مساره الأندلسي سيتصل اسمه بفتوى الغزالي ومراسلات علماء المشرق. وتلك النصوص زمنها وظروفها؛ فهي تفسر جانباً من الاعتراف بسلطان قائم، ولا يجوز أن تسبق في الحكاية أعمالاً وقعت قبلها. في كل مرحلة نسأل: ما الذي عرض

139 الحلل الموشية، طبعة دار الرشد، ص 69-70، خبر ابن رشيق أثناء حصار لبيط. يذكر النص الاستفتاء والنهي عن القتل، ولا يسمي الفقهاء ولا ينقل نص حكمهم. الشاهد.

على العالم؟ ومتى تكلم؟ وما الذي فعله الأمير بعد ذلك؟ بهذا يتضح
عمل كل منهما، وتبقى المشورة مسؤولية يشتركان في حملها بقدر ما
بلغهما من علم وقدرة.

الفصل الثالث والعشرون العدل ومسؤولية السلطان

تختلف كلفة القرار حين ينتقل صاحبه من قيادة جماعة إلى حكم مدن كثيرة. في الجماعة يعرف وجوه رجاله، أما السلطان المتسع فتصل أوامره إلى أناس لم يروه، وقد لا يبلغه من أحوالهم إلا ما ينقله العامل أو القاضي أو صاحب الشكوى. ومن هنا تأتي قيمة خبر ابن أبي زرع عن طواف يوسف بأعمال المغرب وتفقد أحوال الرعية والنظر في سيرة الولاة.¹⁴⁰ يضع الخبر الأمير في صلة بما يجري بعيداً عن مركز ملكه.

وقد وصفه ابن الأثير بالعدل وحسن السيرة، كما نقل ابن خلكان في ترجمته.¹⁴¹ هذا ثناء له وزنه، لكنه يطالبنا بأن نقرأ أعماله، لا أن نستغني عنها. فالحاكم قد يقل نفقته الخاصة وتبقى في بلاده مظلمة؛ وقد يريد الإصلاح ويقع على يد قائده عدوان. لا تقوم عدالة الحكم بالطعام الذي يأكله الأمير وحده، بل بالحقوق التي يأمن الناس عليها.

140 ابن أبي زرع، روض القرطاس، طبعة 1917، ص91، حوادث سنة 464هـ. النص.

141 ابن خلكان، وفيات الأعيان، 7/125، نقل شهادة ابن الأثير. النص.

وفي أخبار فاس نقرأ جانبين متجاورين: عنف الدخول وسقوط قتلى كثيرين، ثم أعمالاً في وصل أجزاء المدينة وإصلاح أسواقها ومراقبتها.¹⁴² لا يلغي البناء ما سبق من الدم، ولا يجعل الدم كل عمل لاحق عديم القيمة. نحتاج إلى أن نعرف الأمرين لنفهم ما حمله اتساع الدولة إلى أهل المدن: سلطاناً قادراً على البناء، وقوة يستطيع استعمالها أن يترك جراحاً عميقة.

وتزداد صعوبة الحكم حين يصبح صاحب النجدة صاحب غلبة على الذين استنجدوا به. فحنة المعتمد ستجعل مؤرخين يراجعون صورة يوسف من جهة معاملة الأسير وأهله؛ ويجمع الذهبي في ترجمته بين الثناء والمأخذ.¹⁴³ وقدرة القارئ على حفظ الوجهين جزء من عدله هو: ألا ينسى فضلاً لأنه رأى خطأ، وألا يسقط حقاً لأنه أحب صاحبه.

تمنحنا سيرة يوسف أمثلة على تحمل المسؤولية، لكنها لا تقدم حاكماً معصوماً من النقد. وعندما نفتدي بعمل حسن فيها فإننا نزن معناه ودليله بميزان الشرع. ولا يكفي نجاح قرار في توسيع السلطان لإثبات عدله؛ فاعتبار المصالح والمفاسد له ضوابطه، ولا يبيح

142 ابن أبي زرع، الأئيس المطرب بروض القرطاس، طبعة 1917، ص 91، خبر فاس وما تلا دخولها من أعمال. النص.

143 الذهبي، سير أعلام النبلاء، «صاحب الغرب»، يجمع الثناء على يوسف والنقد في معاملة ابن عباد. النص.

تجاوز النصوص أو إسقاط حقوق الناس.¹⁴⁴ أما القرارات التي
اختلفت فيها المصلحة بالقوة أو اختلف الحكم عليها، فنقرأها بما
يليق بثقلها، ونترك للمظلوم والمنتصر والراوي موضعهم من الحكاية.

144 ابن تيمية، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فصل الموازنة بين المصالح والمفاسد، ص12-
13 بحسب علامات النص الرقي؛ قوله إن اعتبارها «بميزان الشريعة» مع النهي عن العدول عن
النصوص. الاستفادة في معيار التقويم، لا في نسبة حكم على يوسف إليه. النص.

الفصل الرابع والعشرون حين سقطت طليطلة واقترب الخطر من إشبيلية

مدينة كانت في الوسط

سقطت طليطلة في يد ألفونسو السادس سنة 478هـ/1085م، بعد أن كانت في سلطان القادر بالله يحيى بن ذي النون. وفي نقل المقرئ عن بعض المؤرخين أن الحصار امتد سبع سنين، وأن الأخذ كان في منتصف المحرم، ثم يئنه هو نفسه إلى خلاف في توقيت الخبر.¹⁴⁵

وكانت طليطلة مدينة حصينة على النهر، ذات قصبة منيعة وقنطرة بارزة، كما يصفها المقرئ.¹⁴⁶ جعل هذا الموقع سقوطها حدثاً يتجاوز مصير أهلها وحاكمها إلى ميزان القوة في البلاد.

انتقلت المدينة من سلطان القادر إلى ألفونسو، ثم انتقل القادر إلى بلنسية.¹⁴⁷ وهكذا اتصلت خسارة طليطلة بتاريخ مدينة أخرى

145 المقرئ، نفع الطيب، ج 5، ص 261-262؛ يورد سنة 478هـ ويختلف النقل عنده في يوم الأخذ، فلا يجزم المتن بيوم الشهر. ص 261، ص 262.

146 المقرئ، نفع الطيب، ج 5، ص 261: وصف طليطلة بأنها مدينة حصينة على النهر، ذات قصبة وقنطرة، وذكر منزلتها القديمة. النص.

ستطول الحرب عليها، وسيكون لها موضعها في صلة يوسف بالأندلس.

ويصل ابن خلكان بين أخذ ألفونسو طليطلة واشتداده في طلب البلاد من ملوك الأندلس، ولا سيما المعتمد بن عباد؛ ثم يذكر نظر المعتمد في استدعاء يوسف من المغرب، مع إدراك الخطر الذي قد يحمله هذا القرار إلى ملكه.¹⁴⁸ وفي خبر ابن الأثير عن مقدمات الزلافة يظهر الضغط على قرطبة، واجتماع أهل الرأي في شأن النجدة.¹⁴⁹ بهذا المعنى اتصل سقوط طليطلة بما بعدها: لم تعد المسألة خسارة مدينة وحدها، بل البحث عن يملك رد القوة التي أخذت تتقدم.

الثوب الذي نُسِل من وسطه

لم يحتاج الشاعر إلى خريطة عسكرية ليصف معنى الكارثة. أورد المقرئ أبيات عبد الله بن فرج اليحصبي، المشهور بابن العسال،

147 ابن الأبار، الحلة السيرة، ج2، ص125، خبر أبي عبد الرحمن بن طاهر وما ورد فيه عن القادر؛ ونقل شكيب أرسلان عن ابن بسام في فصل بلنسية من الحلل السندسية. الحلة، نقل ابن إسام.

148 ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج7، ص115، انتقال الخبر من أخذ طليطلة إلى عزم المعتمد على استدعاء يوسف. النص.

149 ابن الأثير، الكامل في التاريخ، حوادث479هـ، «ذكر وقعة الزلافة بالأندلس وهزيمة الفرنج»، خبر قرطبة ومشايخها وطلب النجدة. النص.

بعد حديثه عن استيلاء الإفرنج على طليطلة.¹⁵⁰ ومن الأبيات التي أوردتها:

يا أهل أندلس حثوا مطيكمُ فما المقام بها إلا من الغلطِ
الثوب يُنسل من أطرافه وأرى ثوب الجزيرة منسولاً من
الوسطِ

ونحن بين عدو ولا يفارقنا كيف الحياة مع الحيات في سفت¹⁵¹

ثم حفظ المقرئ رواية أخرى لصدر البيت الثالث: «من جاور
الشر لا يأمن بوائقه»، وحفظ أيضاً اختلافاً في صدر البيت الأول
وصورة البيت الثاني.¹⁵² وفي الذخيرة يظهر البيتان الأولان بصيغة
قريبة، مع اختلاف في مطلع الأول: «حثوا مطاياكم عن أرض
أندلس». ¹⁵³ لذلك لا يصح أن نصنع من صيغة واحدة نصاً
وحيداً متفقاً عليه، ولا أن نضيف إليها خطبة من إنشائنا.

150 المقرئ، نفع الطيب، ج 5، ص 260-261؛ سمي ابن العسال في آخر ص 260، وأورد
الأبيات في ص 261، النسبة، الأبيات.

151 المقرئ، نفع الطيب، ج 5، ص 261؛ قوبلت الأبيات الثلاثة حرفياً على النص الإلكتروني
المفتوح، مع إبقاء رسم المتن الحديث خارج الاقتباس. النص.

152 المقرئ، نفع الطيب، ج 5، ص 261؛ حفظ المقرئ صيغةً أخرى لـ «حثوا رواحكم»
و«السلك ينثر» و«من جاور الشر». اختلاف الرواية مثبت، ولا تُجمع الصيغة داخل اقتباس واحد.
النص.

153 ابن بسام الشنتري، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ج 3، الموضع الإلكتروني ص 250:
«حثوا مطاياكم عن أرض أندلس ... فالثوب ينسل من أطرافه». معانية نصية إلكترونية مباشرة.
النص.

كان معنى الصورة أشد من الرثاء: الثوب عادة يبدأ انحلاله من طرفه، أما أن ينسل من الوسط فذلك إنذار بأن الخرق بلغ موضعاً يحمل ما حوله. هكذا صور الشاعر سقوط طليطلة؛ ليس نهاية الأندلس في يوم واحد، ولكنه انتقال للخطر من الأطراف إلى القلب.

خبر السفير روايتان لا مشهد واحد

وتحفظ المصادر أخباراً عن ضغط ألفونسو على المعتمد سبقت سقوط طليطلة. ومن ذلك خبر سفيره الذي وصلنا في روايتين مختلفتين، لا يجوز جمع تفاصيلهما في مشهد واحد.

فالطريق الذي ينقله المقري عن ابن اللبانة يجعل الحادثة سنة 475هـ، ويقول إن ابن شاليب قدم لقبض الجزية مع قوم من رؤساء النصاري. ولما وجه إليه المال رده محتجاً بعياره، وقال - في اللفظ المنقول - إنه بعد ذلك العام لا يأخذ «إلا أجفان البلاد». ثم أمر المعتمد بسجن النصاري وصلب ابن شاليب.¹⁵⁴

أما الطريق الآخر فيورده المقري ملخصاً عن الحميري في الروض المعطار. يبدأ بتأخر الضريبة بسبب اشتغال المعتمد بحرب ابن

154 المقري، نفح الطيب، الموضع الناقل عن ابن اللبانة: وصول ابن شاليب لقبض الجزية، ورد المال، وسجنه أصحابه وصلبه. العناية للنص الإلكتروني، وهو نقل متأخر عن ابن اللبانة. النص، عند خبر ابن شاليب.

صمادح، ثم يذكر أن ألفونسو طلب حصوناً زيادة على الضريبة، وطلب أن تدخل امرأته الحامل جامع قرطبة وأن تنزل بمدينة الزهراء.¹⁵⁵ وفي تمة هذه الرواية كان الرسول وزيراً يهودياً، وأغلظ في مخاطبة المعتمد، فضربه المعتمد بحجرة ثم أمر بصلبه منكوساً بقرطبة، وبعد ذلك سأل الفقهاء عن فعله.¹⁵⁶

بين الروائين قدر مشترك: ضريبة يطالب بها ألفونسو، ورسول يشتد في الطلب، ورد عنيف من المعتمد، ثم تصعيد عسكري. لكن إحداها تجعل سبب المواجهة عيار المال والتهديد بأخذ البلاد، والأخرى تصلها بطلب الجامع والزهراء. ومن الأمانة أن يبقيا طريقتين، لا أن نجمع المحبرة وعيار الدنانير والزوجة الحامل وعدد الفرسان في مجلس واحد ثم نسميه نقلاً تاريخياً.¹⁵⁷

155 المقري، نفع الطيب، ملخصاً عن الحميري في الروض المعطار: تأخر الضريبة، وطلب حصون زيادة عليها، وطلب دخول الزوجة الحامل جامع قرطبة والنزول بالزهراء. هذه رواية مستقلة عن طريق ابن اللبانة. النص، عند رواية الحميري.

156 المصدر نفسه، تمة رواية الحميري: امتناع المعتمد، وإغلاظ الرسول، وضربه بالمحبرة، وصلبه منكوساً بقرطبة، ثم سؤال الفقهاء. لم يدمج هذا اللفظ مع رواية عيار المال. النص.

157 مقابلة الطريقتين في الصفحة نفسها: طريق ابن اللبانة عند خبر ابن شاليب، وطريق الحميري في خبر الجامع والزهراء. القرار: إثبات القدر المشترك، وفصل المختلف، ومنع تركيب مشهد ثالث منهما. النص.

من التهديد إلى طلب النجدة

في رواية الحميري بلغ خبر قتل الرسول ألفونسو، فجرد جيشين وسارا في طريقين حتى اجتمعا قبالة قصر المعتمد على ضفة النهر.¹⁵⁸ ثم تحفظ الرواية مكاتبة قصيرة تكشف مقدار الاستعلاء والتحدي: طلب ألفونسو مروحة لما لقيه من الحر والذباب، فرد المعتمد بأنه سينظر له في «مراوح من الجلود اللمطية تروح منك لا تروح عليك».¹⁵⁹ لا نزيد على اللفظ مشهداً ولا نقطع بصحة كل تفصيل؛ لكن ذكر الجلود اللمطية هنا يفتح باب الضفة الأخرى قبل أن يعبر يوسف البحر.

والأهم أن المصدر نفسه يصل هذا التحدي بما تلاه: شاع في الأندلس عزم المعتمد على الاستظهار بيوسف بن تاشفين، فاستبشر الناس، بينما خشي بعض ملوك الطوائف أن يأتي سلطان من المغرب فلا يبقى لهم ما بأيديهم.¹⁶⁰ عندها لم يعد السؤال: هل يقدر كل ملك على دفع ما يطلبه ألفونسو هذا العام؟ صار السؤال:

158 المقرئ عن الحميري: بلغ خبر قتل الرسول ألفونسو، وتجريده جيشين سارا في طريقين واجتمعا بصفة النهر قبالة قصر ابن عباد. لا يجزم هذا النقل بعدد الجيش. النص.

159 المقرئ، نفح الطيب، ناقلاً عن الحميري في الروض المعطار: مكاتبة المروحة ورد المعتمد بـ«مراوح من الجلود اللمطية تروح منك لا تروح عليك». قبل الاقتباس على النص الإلكتروني المفتوح، مع نسبة الرواية إلى ناقلها. النص.

160 المصدر نفسه: فشو عزم المعتمد على جواز يوسف بن تاشفين والاستظهار به، واستبشار الناس، وتحذير بعض ملوك الطوائف من عاقبة ذلك. النص.

هل تبقى الأندلس موزعة بين عروش تدفع وتناور، أم تُستدعى
قوة تستطيع جمع القتال تحت قيادة واحدة؟

لم يكن يوسف حاضراً في طليطلة ساعة سقوطها، ولم يشهد مجلس
المعتمد والرسول. ومع ذلك كانت الوقائع تدفع اسمه إلى مقدمة
المشهد. فالمدينة التي سقطت في الوسط، والجزية التي صارت باباً
للإذلال، والجيوش التي بلغت قبالة قصر إشبيلية، كلها جعلت
البحر أضيق في حساب أهل الأندلس. ومن هنا يبدأ الفصل
التالي: من قرطبة ومجلس مشايخها، إلى قرار المعتمد، ثم إلى
الجواب القادم من المغرب.¹⁶¹

161 المصدر نفسه، ختام المقطع: يصل خبر التهديد واختيار المعتمد باستدعاء يوسف بالجدل
الذي دار بينه وبين ملوك الطوائف. استعمل هنا للانتقال إلى خبر المشاورة والاستغاثة في الفصل
التالي، لا لإثبات جميع تفاصيله. النص.

الفصل الخامس والعشرون استغاثة الأندلس وقرار النجدة مشاورة قرطبة وموقف المعتمد وجواب يوسف

حين صار طلب العون مسألة بقاء

كان البحر يفصل يوسف عن الأندلس، لكن أخبارها كانت تقرّبها منه. وفي رواية ابن الأثير يبرز وجه الأزمة من قرطبة: قوة الفرنج، وضعف للمسلمين، وملوك يستعين بعضهم بقوة عدوهم على بعض. اجتمع مشايخ المدينة يبحثون عن مخرج، ومضوا إلى القاضي ابن أدهم يعرضون عليه رأياً. ولم يكن رأيهم الأول استدعاء المرابطين؛ فقد اقترحوا أن يكتبوا إلى عرب إفريقية، وأن يبذلوا لهم من أموالهم، ثم يخرجوا معهم للقتال.¹⁶²

تلك نقطة لها وزنها في الخبر. فالاستغاثة لم تظهر فيه كلمة يتفق عليها الجميع من غير نظر، وإنما كانت سؤالاً عن القوة التي يمكن أن تأتي، وما الذي قد تأتي به معها. اعترض القاضي على الاختيار

162 عز الدين ابن الأثير، الكامل في التاريخ، حوادث سنة 479هـ، ذكر وقعة الزلافة بالأندلس وهزيمة الفرنج، من «فلما عاد إليها» إلى «المتطوعة من سائر بلاد الأندلس»، الشاهد المباشر.

المقترح، وخشي أن يصيب البلاد من القادمين ما أصاب إفريقية في تقديره، ثم قال: «والمرابطون أصلح منهم وأقرب إلينا».¹⁶³

بهذه الجملة نقل القاضي المشاورة إلى يوسف ورجاله. واختيار المنقذ هنا جزء من النجدة نفسها؛ فحاجة الناس إلى القوة لا تعفيهم من السؤال عن عاقبة الاستعانة بها. غير أن وصف القاضي يبقى رأياً في سياق تلك المشاورة، ولا يتحول إلى حكم مطلق على أنساب الناس وقبائلهم. وفي حدود الرواية، انتهى المجتمعون إلى أن يكتب أمير المسلمين، ويدعوه إلى العبور أو إرسال بعض قواده.

ثم يحضر المعتمد بن عباد في خبر ابن الأثير، ويعرض عليه القاضي ما تداولوه. فيقول المعتمد لابن أدهم: «أنت رسولي إليه في ذلك». امتنع القاضي أول الأمر، ثم ألح عليه المعتمد، فمضى بالرسالة وأخبر يوسف بما يخافه المسلمون من ألفونسو. ويضع ابن الأثير يوسف في سبته عند وصول الرسول إليه؛ فتأتي الاستجابة أمراً بعبور العساكر، وطلب بقية الجند من مراکش.¹⁶⁴

163 عز الدين ابن الأثير، الكامل في التاريخ، حوادث سنة 479هـ، ذكر وقعة الزلافة بالأندلس وهزيمة الفرنج، من «فلما عاد إليها» إلى «المتطوعة من سائر بلاد الأندلس»، الشاهد المباشر.

164 عز الدين ابن الأثير، الكامل في التاريخ، حوادث سنة 479هـ، ذكر وقعة الزلافة بالأندلس وهزيمة الفرنج، من «فلما عاد إليها» إلى «المتطوعة من سائر بلاد الأندلس»، الشاهد المباشر.

تبدو قرطبة في هذا الخبر حاضرة في صناعة القرار، ويبدو القاضي حاملاً لمطلب أهلها، والمعتمد صاحب تفويض للرسالة. ولا يحتاج هذا المشهد إلى خطبة طويلة حتى ندرك ثقله. ففي انتقال رأي أهل المدينة إلى رسول يعبر البحر ما يكشف أن طلب العون خرج من دائرة التمني إلى العمل. وكان وراء الرسالة سؤال لا يجيب عنه اللفظ وحده: هل يصل الرجال قبل أن يضيق مجال المقاومة أكثر؟

ملك ينظر في خطرين

لم يكن النظر إلى يوسف واحداً في أخبار ملوك الأندلس. ينقل ابن خلكان في ترجمة يوسف قصة مراسلات سبقت الاستنجاد، ويورد كتاب طمأنة إلى الملوك يتضمن إقراراً بما في أيديهم من الملك، ودعوة إلى دوام الوفاء. ومن عبارته: «فاستديموا وفاءنا بوفائكم، واستصلحوا إخواننا بإصلاح إخوانكم».¹⁶⁵

تضيء هذه الرسالة المنقولة ناحية من العلاقة قبل اللقاء العسكري؛ فالحاجة إلى التعاون كانت مصحوبة بسؤال السلطان وحدوده. وكان على من يطلب قوة من وراء البحر أن ينظر في أثر حضورها

165 ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج 7 ص 115، ترجمة يوسف بن تاشفين، كتاب الطمأنة ثم رأي المعتمد، الشاهد المباشر، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج 7 ص 112، افتتاح ترجمة يوسف بن تاشفين رقم 844، الشاهد المباشر.

في بلاده. ثم يمضي الخبر إلى ضغط ألفونسو وطلبه البلاد، وإلى قرار المعتمد باستدعاء يوسف مع إدراك الخطر الذي قد يأتي على ملكه من هذا الباب.¹⁶⁶

وفي هذا السياق يحفظ ابن خلكان قولاً منسوباً إلى المعتمد: «إن دهيّنا من مداخلة الأضداد لنا فأهون الأمرين أمر المثلثين، ولأن يرعى أولادنا جمالهم أحب إليهم من أن يرعوا خنازير الفرنج».¹⁶⁷

لفظ الرواية يتحدث عن الأولاد، ويقارن بين عاقبتين يخشاها الملك. وليس فيه أن طلب النجدة صار طريقاً مأموناً لا خسارة فيه. وتأتي قوة العبارة من هذا الإقرار نفسه: قد يبقى الخطر قائماً، ويكون ترك الفعل أشد خطراً. أما الحكم على جميع مقاصد المعتمد وأسرار نفسه فلا تنسج له كلمة واحدة، مهما بلغت شهرتها. يكفيها هنا أن الخبر يصور اختيار الاستنجاد مع حضور الخوف على الملك.

166 ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج 7 ص 115، ترجمة يوسف بن تاشفين، كتاب الطمأنة ثم رأي المعتمد، الشاهد المباشر، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج 7 ص 112، افتتاح ترجمة يوسف بن تاشفين رقم 844، الشاهد المباشر.

167 ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج 7 ص 115، ترجمة يوسف بن تاشفين، كتاب الطمأنة ثم رأي المعتمد، الشاهد المباشر، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج 7 ص 112، افتتاح ترجمة يوسف بن تاشفين رقم 844، الشاهد المباشر.

ثم ترد في السياق نفسه رسالة استعجال إلى يوسف: «إن كنت مؤثراً للجهاد فهذا أوانه، فقد خرج الأذفونش إلى البلاد، فأسرع في العبور إليه، ونحن معاشر أهل الجزيرة بين يديك».¹⁶⁸

في هذه الكلمات ينتقل الطلب من أصل الموافقة إلى وقت التنفيذ. فالعدو يتحرك، والنجدة التي تأتي بعد فوات موضعها قد لا تدرك ما خرجت لإنقاذه. هكذا تعطينا المراسلات المنقولة صورة لعلاقة تنمو تحت ضغط الحرب: طمأنة، ثم استدعاء، ثم حث على الإسراع. ولا يلزم من ذلك أن نجعل كل رسالة جواباً مباشراً لاجتماع قرطبة؛ فالأخبار حفظت لنا وجوهاً من المسار، ولم تحفظ جدولاً كاملاً لكل رسول وكل كتاب.

جواب يوسف

أما عبد الواحد المراكشي فيقدم خبراً آخر في «المعجب»: يجعل المعتمد هو الذي جاز البحر سنة 479هـ إلى مراكش، وطلب من يوسف مدداً من الخيل والرجال. ويذكر حسن استقباله له، ثم

168 ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج 7 ص 116، رسالة الاستعجال وتتابع الجيوش وعبور يوسف في آخرها، الشاهد المباشر؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج 7 ص 112، افتتاح ترجمة يوسف بن تاشفين رقم 844، الشاهد المباشر.

يسوق جواب يوسف: «أنا أول منتدب لنصرة هذا الدين، ولا يتولى هذا الأمر أحد إلا أنا بنفسى!».¹⁶⁹

إنها إجابة قصيرة، لكنها تحدد في الرواية طبيعة المشاركة التي اختارها يوسف: أن يحضر بنفسه. فالطلب مدد، والجواب تولي الأمر والخروج فيه. وهذه ناحية ظاهرة في القول المنقول، أما ما دار في القلب فلا يرويه لنا القول. وحين نتابع حركة الجيش بعده ننتقل من وعد تنقله الرواية إلى حملة يصف المؤرخون عبورها واجتماع رجالها على الضفة الأخرى.

ويختلف موضع اللقاء في «روض القرطاس»؛ إذ يذكر ابن أبي زرع أن المعتمد لقي يوسف بموضع يعرف ببليطة في بلاد طنجة، وأن يوسف أمره أن يرجع إلى بلده ويأخذ في شأنه، وأخبره بقدومه في أثره. وتبقى هذه الصورة متميزة من صورة اللقاء في مراکش عند صاحب «المعجب»، ومن سفارة ابن أدهم إلى سبتة عند ابن الأثير.¹⁷⁰

169 عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، قسم أول أمر المرابطين بالأندلس، عقب أخبار ابن عمار وبني عباد وقبل وقعة الزلاقة؛ من «ولما كانت سنة 479» إلى «توجهت وجهه»، الشاهد المباشر.

170 ابن أبي زرع الفاسي، الأئیس المطرب بروض القرطاس، نسخة 1917، الصفحة المطبوعة 93، ورقة PDF94، من خبر لقاء المعتمد ببليطة إلى جواز البحر، الشاهد المباشر؛ عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، قسم أول أمر المرابطين بالأندلس، عقب أخبار ابن عمار وبني عباد وقبل وقعة الزلاقة؛ من «ولما كانت سنة 479» إلى «توجهت وجهه»،

يمكن أن تتعدد الرسل واللقاءات في طريق قرار كبير، لكن وصل هذه الروايات في سلسلة واحدة يحتاج إلى بيئة على ترتيبها. لذلك نصحب كل خبر في حدوده، ونلتقي عند الوجه الذي تعرضه هذه المواضع جميعاً: طلب نجدة من الأندلس، واستجابة من يوسف، ثم انتقال إلى إعداد العبور. لقد صار البحر طريقاً لجيش مقبل، وصارت الجزيرة الخضراء في الأخبار موضع اجتماع بعد أن كانت الأندلس موضوع رسائل بعيدة. ومن هنا يبدأ الامتحان التالي. أن يقبل الرجل النجدة أمر، وأن يحمل الرجال والخيول إلى ميدانها أمر آخر. وبين الوعد والوصول يقع العمل الذي تتعلق به حياة الجند ومصير من ينتظرهم.

الشاهد المباشر؛ عز الدين ابن الأثير، الكامل في التاريخ، حوادث سنة 479هـ، ذكر وقعة الزلاقة بالأندلس وهزيمة الفرنج، من «فلما عاد إليها» إلى «المتطوعة من سائر بلاد الأندلس»، الشاهد المباشر.

الفصل السادس والعشرون تدبير العبور الأول من سبتة إلى الجزيرة الخضراء

الوعد يأخذ طريقه إلى البحر

صار على يوسف أن ينقل النجدة من الخبر إلى الأرض. وتضع رواية ابن الأثير سبتة في أول هذا العمل؛ فبعد وصول رسالة الاستغاثة إليه أمر بعبور العساكر، وكتب في طلب من بقي من جنده بمراكش. ويصف المؤرخ إقبالها متتابعة حتى اجتمعت عنده، ثم عبوره البحر.¹⁷¹

يجمع هذا الخبر بين موضع القيادة وموضع المدد وطريق الانتقال. فهو لا يعرض الجيش كحلة ظهرت فجأة على الساحل، بل يذكر استدعاء رجال لم يكونوا جميعاً عند يوسف حين بلغه الطلب. ومن هذا التفصيل نستطيع أن نفهم عبثاً من أعباء النجدة: أن يتصل القرار بمن سينفذونه، وأن يبلغ القادمون موضع العبور قبل أن يتجهوا إلى ميدان القتال.

171 عز الدين ابن الأثير، الكامل في التاريخ، حوادث سنة 479هـ، ذكر وقعة الزلافة بالأندلس وهزيمة الفرنج، من «فلما عاد إليها» إلى «المتطوعة من سائر بلاد الأندلس»، الشاهد المباشر.

وفي رواية ابن أبي زرع يأتي ذكر إصلاح سبته وسفنها، ثم لحق العساكر والوفود بيوسف، وقدوم الحشود من جهات متعددة من المغرب والصحراء. وبعد ذلك يشرع في تجويز الجيوش، حتى تستوفي العساكر نزولها بساحل الجزيرة الخضراء، ويعبر هو في أثرها.¹⁷²

يحفظ هذا النص فعلاً محدداً يسبق الرحيل: إصلاح أحوال الميناء وسفنه. وبذلك تتسع صورة القيادة عن أمر يقال للمقاتلين. فالرجال يحتاجون إلى وسيلة تحملهم، وموعد الاجتماع يحتاج إلى مكان يحتمل الاجتماع، والصفة التي يقصدونها تحتاج إلى وصول من تقدمهم. وهذه لوازم نفهمها من طبيعة العمل، لا تفاصيل ننسبها إلى خطة مكتوبة لم تصل إلينا.

وكان إعداد الوسيلة التي تحمل الجيش جزءاً من الاستجابة للرسالة. فإصلاح السفن الذي يوجزه الخبر في كلمات هو من العمل الذي يسبق اللقاء، وقد تتعلق بتمامه قدرة الرجال على بلوغ ميدانهم.

172 ابن أبي زرع الفاسي، الأئيس المطرب بروض القرطاس، نسخة 1917، الصفحة المطبوعة 93، ورقة 94PDF، من خبر لقاء المعتمد ببليطة إلى جواز البحر، الشاهد المباشر.

الرجال والضفة الأخرى

ويذكر صاحب «المعجب» استنفار يوسف من استطاع من القواد وأعيان الجند ووجوه القبائل، ويقدر المجتمعين له بنحو سبعة آلاف فارس، مع عدد كثير من الرجالة. ثم يحدد طريقه من سبتة إلى الجزيرة الخضراء. وهذا تعداد يرويه المراكشي، وليس إحصاءً متفقاً عليه بين المصادر؛ لذلك نقرأه منسوباً إليه، ونرى فيه أيضاً اجتماع فرسان ومشاة في الحملة.¹⁷³

في هذه الأخبار تكرر الجزيرة الخضراء مقصداً للنزول. وعند ابن خلكان خبر إرسال يوسف عساكره وتابعها إلى الأندلس، ثم عبوره في آخرها، حتى تكامل القوات في الأندلس وتوجه إلى لقاء ألفونسو. ويلتقي هذا المعنى مع تقديم الجيش في «روض القرطاس»، وإن اختلفت الروايات في تفصيلاتها ومواعيدها.¹⁷⁴

تعطي الضفة الأخرى للقرار صورته التي يراها أهل الأندلس: جند يصلون، ثم قائد يعبر، وقوة تدخل في حساب الحرب. وتغدو

173 عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، قسم أول أمر المرابطين بالأندلس، عقب أخبار ابن عمار وبني عباد وقبل وقعة الزلاقة؛ من «ولما كانت سنة 479» إلى «توجهت وجهه»، الشاهد المباشر.

174 ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج 7 ص 116، رسالة الاستعجال وتتابع الجيوش وعبور يوسف في آخرها، الشاهد المباشر؛ ابن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس، نسخة 1917، الصفحة المطبوعة 93، ورقة PDF94، من خبر لقاء المعتمد ببليطة إلى جواز البحر، الشاهد المباشر.

الجزيرة في هذا المسار موضعاً يلتقي فيه القادمون من المغرب قبل أن يتابعوا السير إلى الميدان.¹⁷⁵

وكان تقديم الجند على القائد يعني، في هذه الرواية، أن وصول يوسف جاء بعد عمل سبقه في البحر وعلى الساحل. فلا يستأثر اسم الأمير بمشهد العبور كله؛ هناك رجال مضوا قبله، ورجال اجتمعوا معه، ثم حملة يربط غرضها بين من تقدم ومن تأخر.

دعاء على ظهر السفينة

وعند هذه النقطة يحفظ «روض القرطاس» خبر دعاء ليوسف بعدما استقر على ظهر السفينة. وخلاصته أنه سأل الله أن يسهل له الجواز إن كان فيه خير وصلاح للمسلمين، وأن يصعبه عليه إن كان الأمر غير ذلك، حتى لا يعبر. ثم يذكر المؤلف تيسر العبور ونزوله بالجزيرة الخضراء.¹⁷⁶

175 ابن أبي زرع الفاسي، الأئیس المطرب بروض القرطاس، نسخة 1917، الصفحة المطبوعة 93، ورقة 94PDF، من خبر لقاء المعتمد ببليطة إلى جواز البحر، الشاهد المباشر؛ عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، قسم أول أمر المرابطين بالأندلس، عقب أخبار ابن عمار وبني عباد وقبل وقعة الزلاقة، من «ولما كانت سنة 479» إلى «توجهت وجهه»، الشاهد المباشر.

176 ابن أبي زرع الفاسي، الأئیس المطرب بروض القرطاس، نسخة 1917، الصفحة المطبوعة 93، ورقة 94PDF، من خبر لقاء المعتمد ببليطة إلى جواز البحر، الشاهد المباشر.

في الدعاء المنقول تعليق للمضي على الخير للمسلمين. ولا تنفصل هذه الدلالة عن حال رجل خرج لأمر عظيم، لكنه لا يعلم عاقبته. وقد سبق في الرواية إصلاح السفن وجمع الرجال وتقديم الجيش؛ فيأتي الدعاء في هذا السياق مصاحباً للأخذ بالأسباب. وهذه قراءة لمعنى الخبر، مع بقاء ثبوت لفظه عن يوسف محتاجاً إلى النظر في طريق نقله.

ويعيد هذا المعنى النظر إلى من ينتظرون النجدة: أن يكون عبوره خيراً لهم. وحين تكون حياة الناس متعلقة بقرار قائد، يكون سؤال العاقبة جزءاً من ثقل المسؤولية، مهما ظهرت قوة العدة وحسن الاستعداد.

الوصول بداية أخرى

تذكر رواية «روض القرطاس» نزول يوسف وصلاة الظهر ولقاء المعتمد له، ويذكر «المعجب» استقبال المعتمد وإكرامه وتقديم الهدايا إليه. غير أن تاريخ الوصول داخل سنة 479 هـ لا يأتي على نسق واحد في المواضع التي بين أيدينا؛ ف«روض القرطاس» يذكر منتصف ربيع الأول، بينما يضع «المعجب» التأهب للعبور في

جمادى الأولى. لذلك لا نبني على الجمع بينهما يوماً مفصلاً
للرحلة.¹⁷⁷

ثم يروي المراكشي أن المعتمد دعاه إلى دخول إشبيلية ليستريح من
السفر، فينقل عن يوسف قوله: «إنما جئت ناوياً جهاد العدو،
فحيثما كان العدو توجهت وجهه». تبقى هذه الكلمة منسوبة إلى
روايتها، مع ما في سياقها من مسائل ترتيب الحملات؛ وهي تصور
وجهة القائد كما أراد المؤرخ أن ينقلها: متابعة الغرض الذي عبر
من أجله.¹⁷⁸

لقد وصل يوسف إلى الأندلس، ولم تنته النجدة بالوصول. كان
وراء الجيش بحر عبره، وأمامه عدو خرج للقاءه. ومن هنا ستنتقل
الحكاية من تدير الطريق إلى تدير الميدان، ومن اجتماع الحلفاء
إلى ما تصنعه قوتهم حين يبدأ القتال.

177 ابن أبي زرع الفاسي، الأنبس المطرب بروض القرطاس، نسخة 1917، الصفحة
المطبوعة 93، ورقة PDF94، من خبر لقاء المعتمد ببليطة إلى جواز البحر، الشاهد المباشر؛ عبد
الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، قسم أول أمر المرابطين بالأندلس، عقب
أخبار ابن عمار وبني عباد وقبل وقعة الزلاقة؛ من «ولما كانت سنة 479» إلى «توجهت وجهه»،
الشاهد المباشر.

178 عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، قسم أول أمر المرابطين
بالأندلس، عقب أخبار ابن عمار وبني عباد وقبل وقعة الزلاقة؛ من «ولما كانت سنة 479» إلى
«توجهت وجهه»، الشاهد المباشر؛ عز الدين ابن الأثير، الكامل في التاريخ، حوادث سنة 479هـ،
ذكر وقعة الزلاقة بالأندلس وهزيمة الفرنج، من «فلما عاد إليها» إلى «المتطوعة من سائر بلاد
الأندلس»، الشاهد المباشر.

الفصل السابع والعشرون من الجزيرة الخضراء إلى الزلاقة كيف اجتمعت جبهة متفرقة

لم يكن عبور البحر خاتمة التدبير، بل بدايته. تذكر رواية روض
القرطاس أن يوسف أتم عبور الجند، ثم جاز في أثرهم إلى الجزيرة
الخضراء، حيث لقيه المعتمد وسائر من حضر من أمراء الأندلس.
وفي الجهة الأخرى بلغ الخبر ألفونسو وهو على سرقسطة، فترك
حصارها واتجه إلى لقاء الجيش القادم.¹⁷⁹ لم تجمع هذه اللحظة بين
جيشين فحسب؛ جمعت رجالاً ألفوا أن يحرس كل واحد منهم
حدوده ومملكه، ثم وجدوا الخطر يدفعهم إلى طريق واحد.

جيشان في مسير واحد

تكشف الرواية عن ترتيب لا عن حشد مضطرب. قدّم يوسف
قائده داود بن عائشة في طائفة من المرابطين، وجعل المعتمد
وملوك الأندلس في محلة، والمرابطين في محلة أخرى؛ فإذا انتقل
المعتمد ومن معه نزل يوسف بعدهم. ويمكن قراءة هذا الترتيب

179 ابن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص 93 من المطبوع/صفحة الملف 94:
تمام العبور ولقاء ملوك الأندلس في الجزيرة الخضراء. الشاهد المباشر.

في ضوء طبيعة القوة التي يحملها: جند المغرب يعرف قاداته وعاداته، وجند الأندلس اجتمع من إمارات متفرقة، فلا تُخلط الصفوف خلطاً يبدد معرفتها بقيادتها، ولا تُترك كل راية تتحرك وحدها. وحين سار المعتمد في المقدمة ونزل يوسف بعده، صار الطريق نفسه تدريباً على أن يسبق الأمر الحركة وأن تتبع كل قوة موضعها المعلوم.¹⁸⁰ لم يذب اختلاف الجيشين في ليلة واحدة، ولم يكن ذلك مطلوباً؛ المطلوب أن تتحول القوة المتفرقة إلى نظام يستطيع أن يتحرك ويتلقى الأمر ويعرف موضعه عند القتال. ومن هنا يظهر فرق مهم بين الوحدة والشبه: لم يصبح الأندلسيون مرابطين، ولم يصبح المرابطون جند طائفة؛ لكن الطرفين دخلاً ترتيباً واحداً جعل اختلافهما مورد قوة بدل أن يكون باب فوضى.

وتسمي الرواية جماعة من أمراء الأندلس الذين ساروا مع المعتمد، غير أن دلالتها الأهم ليست في استقصاء الأسماء، بل في أن يوسف أعاد ترتيب العلاقة بينهم: صار لهم قائد ميداني ظاهر ومحلة تجمعهم، وبقيت قوة المرابطين متماسكة في محلها.¹⁸¹ هذه صورة

180 ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص 94/صفحة الملف 95: تقديم داود بن عائشة وجعل ملوك الأندلس في محلة والمرابطين في محلة. الشاهد المباشر.

181 ابن أبي زرع، روض القرطاس، طبعة 1917: جمع أمراء الأندلس مع المعتمد؛ لم يُعتمد اختلاف ضبط بعض الأسماء في النص الإلكتروني. الشاهد المباشر.

أدق من المشهد الذي يزعم أن الرايات اتحدت لأن القلوب اتحدت؛ فالقلوب لا تُقرأ من بعيد، أما ترتيب السير والمعسكر فيمكن وصفه ومناقشة أثره.

أما أعداد المقاتلين التي تتردد في الروايات والكتب الحديثة، فتختلف اختلافاً واسعاً. لذلك لا يبنى هذا الفصل على رقم يوهم باليقين. والمشارك في الأخبار هنا أن جموعاً جاءت ألفونسو من جهات متعددة، وأن الطرفين تحركا إلى اللقاء؛ وما وراء ذلك يحتاج إلى موازنة مستقلة بين المصادر.¹⁸²

انسحاب ألفونسو من سرقسطة

كان ألفونسو يضغط على سرقسطة حين وصله خبر العبور. تقول رواية ابن أبي زرع إنه ارتحل عنها واستدعى قوى كانت تعمل عند طرطوشة وبلنسية، ثم استنفر قشتالة وجليقية وبيونة.¹⁸³ لقد ظهر جيش وراء البحر واجتمع به أمراء من الأندلس، فاضطر إلى تغيير وجهته وجمع القوة للقائه. كان هذا أثراً للعبور قبل وقوع المعركة نفسها.

182 ابن أبي زرع، روض القرطاس، طبعة 1917: حشود متعددة بلا عدد قابل للتحقيق؛ علقت الأرقام المتداولة، الشاهد المباشر.

183 ابن أبي زرع، روض القرطاس، طبعة 1917: انزعاج ألفونسو عن سرقسطة واستدعاء القوى الموجودة عند طرطوشة وبلنسية. الشاهد المباشر.

هنا ظهر أثر القرار قبل أن تضرب سيوف الزلافة: مدينة كانت تحت الحصار تنفست حين ارتحل عنها المحاصر، والجيش الذي عبر لنصرة الأندلس أخذ زمام الحركة من خصمه. لكنه لم ينتصر بعد؛ كان عليه أن يحوّل هذا الأثر الأول إلى ثبات في الميدان.

المعسكران عند بطليوس

تضع الرواية نزول ألفونسو بالقرب من بطليوس، ونزول يوسف بالزلافة من أحوازها. وتذكر أن المعتمد وأمرء الأندلس كانوا في جهة، وبين المحلات ربوة، وأن نهر بطليوس كان حاجزاً يشرب منه الفريقان.¹⁸⁴ كانت القوات متجاورة دون أن تتداخل قياداتها، وأصبح ترتيبها في المعسكر مدخلاً لفهم ما جرى عند الصدام.

أقام الجيشان ثلاثة أيام، والرسل تنتقل بينهما.¹⁸⁵ سبق الاصطدام إذن وقت للمراقبة والمكاتب، واتفاق معلن على موعد. لكن الاتفاق لم يبدد الحذر؛ وسيأتي خبر التحرك المبكر ليمتحن استعداد الجيشين قبل الموعد الذي تحدثت عنه الرواية.

184 ابن أبي زرع، روض القرطاس، طبعة 1917: نزول ألفونسو قرب بطليوس ونزول يوسف بالزلافة من أحوازها. الشاهد المباشر.

185 ابن أبي زرع، روض القرطاس، طبعة 1917: إقامة ثلاثة أيام واختلاف الرسل بين المعسكرين. الشاهد المباشر.

الفصل الثامن والعشرون ليلة الموعد الرسالة والحذر وترتيب القوة

رسالة قصيرة لا خطبة مصنوعة

يذكر ابن أبي زرع أن يوسف كتب إلى ألفونسو يدعوه إلى الإسلام أو الجزية أو الحرب.¹⁸⁶ يعرض المؤرخ مضمون الدعوة، ثم ينقل جواب الملك: «لا نتعب نفسك، أنا أصل إليك».¹⁸⁷ كان الكلام يتجه إلى اللقاء، وتتحول معه مسؤولية القائد من المراسلة إلى حساب الحركة والاستعداد.

اتفاق لا يبدد الريبة

تختلف الروايات في تعيين يوم الموعد وتاريخ الوقعة. ينقل روض القرطاس اتفاقاً على الاثنين، ثم يحفظ في كتاب الفتح تعليلاً يذكر الجمعة عيد المسلمين والسبت لليهود والأحد للنصارى.¹⁸⁸ أما ابن

186 ابن أبي زرع، روض القرطاس، طبعة 1917: كتاب يوسف إلى ألفونسو يدعوه إلى الإسلام أو الجزية أو الحرب. الشاهد المباشر.

187 ابن أبي زرع، روض القرطاس، طبعة 1917: جواب ألفونسو للرسول: «لا نتعب نفسك أنا أصل إليك». الشاهد المباشر.

188 ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص 97/صفحة الملف 98: نص كتاب الفتح في تحليل الأيام الثلاثة قبل الاثنين. الشاهد المباشر.

خلكان فيسوق قولاً بأن الموعد كان السبت، ويذكر للوقعة الخامس عشر من رجب، مع قول آخر يجعلها في أواخر رمضان؛ بينما يختار روض القرطاس الثاني عشر من رجب.¹⁸⁹ هذه الفروق لا تمحي بعبارة جازمة، بل تذكر لأنها جزء من أمانة الرواية.

لم يركن المعتمد إلى الموعد. تقول الرواية إنه حذر يوسف من مكر خصمه وخديعته، ثم عباً تكائبه ووضع العيون على معسكره.¹⁹⁰ وعند صلاة الصبح جاءته الخيل بالخبر الذي كان يخشاه: الجيش المقابل قد تحرك.¹⁹¹

ويصف ابن أبي زرع يوسف بأنه كان على أهبة الحرب، وأن أحداً لم ينم في محلته تلك الليلة.¹⁹² تصوغ الرواية صورة استعداد شديد؛ وحين بلغ الخبر يوسف انتقل إلى توجيه القوة التي معه.

189 ابن خلكان، وفیات الأعيان، ج 7 ص 117: السبت موعداً والجمعة مباغته، والخامس عشر من رجب مع قول في أواخر رمضان؛ يقابله روض القرطاس ص 97-98. ويجعل ابن الأثير الوقعة في العشر الأول من رمضان 479هـ، بينما يسوق المعجب تاريخ 13 رمضان 480هـ؛ فلا يعتمد تفصيل اليوم من مصدر واحد. الكامل. الشاهد المباشر.

190 روض القرطاس ص 94/صفحة الملف 95: تحذير المعتمد من المكر، وتعبئة الكائب، ووضع العيون. الشاهد المباشر.

191 ابن أبي زرع، روض القرطاس، طبعة 1917: وصول خيل الاستطلاع إلى المعتمد وهو في آخر صلاة الصبح، الشاهد المباشر.

192 روض القرطاس ص 95/صفحة الملف 96: يوسف على أهبة الحرب، ولم ينم في محلته أحد تلك الليلة. الشاهد المباشر.

كان الفارق في الموقف بين انتظار الموعد المعلن وحده والاستعداد لما قد يقع قبله.

ترتيب القوة قبل الصدام

لا تقدم الرواية «خطة كاشة» مكتوبة سلفاً بالمصطلحات الحديثة، لكنها تعرض ترتيباً يمكن تتبع أثره: داود بن عائشة في قوة مرابطة متقدمة، والمعتمد ورؤساء الأندلس في محلة، ويوسف خلفهم بقوة المرابطين.¹⁹³ وعندما اندفع ألفونسو، اتجه بقسم من جيشه إلى داود، واتجه قسم آخر إلى محلة المعتمد.¹⁹⁴

هذه البنية تفسر ما جرى بعد ذلك من غير حاجة إلى إضافة قوات مخفية وراء التلال. حين اشتد الضغط، بعث يوسف سير بن أبي بكر بمن معه نجدةً إلى داود والمعتمد.¹⁹⁵ ثم سار يوسف بقوة لمتونة والمرابطين إلى محلة ألفونسو نفسها، فضربها وأحرقها وقتل من ترك لحراستها.¹⁹⁶

193 روض القرطاس ص 94/صفحة الملف 95: بنية المحلتين وتقديم داود بن عائشة. الشاهد المباشر.

194 روض القرطاس ص 95/صفحة الملف 96: توجه ألفونسو إلى قوة داود، وتوجه فرقة أخرى إلى محلة المعتمد. الشاهد المباشر.

195 ابن أبي زرع، روض القرطاس، طبعة 1917: إرسال سير بن أبي بكر نجدةً لداود والمعتمد. الشاهد المباشر.

196 ابن أبي زرع، روض القرطاس، طبعة 1917: مسير يوسف إلى محلة ألفونسو وإحراقها؛ لا يثبت اختباء قوة باسم الحرس الأسود خلف التلال. الشاهد المباشر.

كانت الخطة — كما تسمح الرواية أن نفهمها — مرنة أكثر من كونها رسمًا هندسيًا سابقًا: مقدمة تتلقى الصدمة، وقيادة تتابع خبرها، وقوة تُرسل لتثبيتها، ثم حركة على معسكر الخصم تجبره على الالتفات. وتسمح هذه القراءة بفهم أثر بقاء قوة تحت يد يوسف يتصرف بها بعد بدء القتال: دعم من ثبت، ثم نقل الخطر إلى خلف الخصم. أما الجزم بما كان سيقع لو اتخذ قرارًا آخر، فلا يتيح الخبر. ولا يلزم من ذلك أن كل تفصيل وقع كما خطط له قبل القتال؛ بل الأوضح أن ترتيب الجيش منحه خيارات حين اضطربت الصفوف. وهذا هو موضع يوسف في يوم الزلافة: لم يستهلك قوته كلها في أول اصطدام، ولم يبق بعيدًا حين احتاج الميدان إلى تدخله.

الفصل التاسع والعشرون يوم الزلاقة حين تغير اتجاه المعركة

المفاجأة الأولى

جاءت الخيل إلى المعتمد في سحر الجمعة تخبره أن جيش الخصم قد زحف. كان في آخر صلاة الصبح، فأرسل الخبر إلى يوسف، وبدأت الحركة قبل أن يستقر النهار.¹⁹⁷ وتكشف مقارنة ابن خلكان بروض القرطاس اتفاقهما على عنصر المباغته صباح الجمعة، مع اختلافهما في الموعد السابق وتاريخ اليوم من الشهر.¹⁹⁸

اندفع ألفونسو إلى القوة التي مع داود بن عائشة. تذكر الرواية قتلاً شديداً، وأن كثرة المهاجمين كادت تستأصل تلك القوة. هنا كانت اللحظة التي يمكن أن يفصل فيها كل جيش عن الآخر: لو انهارت مقدمة داود سريعاً، انفتح الطريق؛ ولو ظن الأندلسيون أن المرابطين قد تركوهم للصدمة، عادت كل راية إلى نجاة صاحبها. لكن داود بقي يقاتل، فوصل الخبر إلى يوسف عن

197 روض القرطاس ص 94/صفحة الملف 95: وصول خيل العيون عند فجر الجمعة والمعتمد في صلاة الصبح. الشاهد المباشر.

198 ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج 7 ص 117: المباغته صبيحة الجمعة؛ توافق جزئي مع روض القرطاس مع اختلاف اليوم والموعِد. الشاهد المباشر.

موضع ثابت يمكن إسناده، لا عن فراغ انتهى أمره.¹⁹⁹ وفي جهة أخرى هاجمت فرقة محلة المعتمد، فتراجعت جماعات من رؤساء الأندلس نحو بطليوس، وبقي المعتمد ومن ثبت معه يقاتلون. لم يكن الثبات عامًا، وهذه الحقيقة لا تضعف الرواية؛ بل تكشف قدر ما كان مطلوبًا ممن بقي في مكانه حتى تصل النجدة.²⁰⁰ وتذكر رواية ابن أبي زرع في خاتمة الخبر إصابته بست جراحات.²⁰¹

وصل الخبر إلى يوسف: داود والمعتمد صامدان، وغيرهما قد تراجع. فبعث سير بن أبي بكر في قبائل من جند المغرب لإسنادهما.²⁰² هنا لا تظهر القيادة في عبارة حماسية تروى بعد قرون، بل في قراءة الموقف: من بقي في موضعه؟ وأين توضع القوة التالية كي لا تتحول الثغرة إلى انهيار؟

199 روض القرطاس ص 95/صفحة الملف 96: شدة القتال على داود وكثرة المهاجمين حتى كادوا يستأصلون قوته. الشاهد المباشر.

200 ابن أبي زرع، روض القرطاس، طبعة 1917: تراجع جماعات من رؤساء الأندلس وثبات المعتمد وجيشه. الشاهد المباشر.

201 روض القرطاس ص 98/صفحة الملف 99: ثبات المعتمد وإصابته بست جراحات. الشاهد المباشر.

202 روض القرطاس ص 95/صفحة الملف 96: إرسال سير بن أبي بكر في قبائل من المغرب لإسناد داود والمعتمد. الشاهد المباشر.

إلى محلة ألفونسو

بعد إرسال النجدة اتجه يوسف بقوة المرابطين إلى محلة ألفونسو، بينما كان الملك منشغلاً بالقتال في الجبهة الأخرى.²⁰³ أُحرقت المحلة، وقُتل من بقي لحراستها، ثم رجع الفارون منها إلى ملكهم، ويوسف في أثرهم بصفوفه وطبوله.²⁰⁴

علم ألفونسو بما حدث في معسكره، فتحول إلى مواجهة القوة القادمة من جهته.²⁰⁵ وقد جعلت حركة يوسف الحرب قريبة من موضع المؤونة والحراسة، بعد أن كانت قوة الملك تضغط على داود والمعتمد.

كان يوسف — في تصوير روض القرطاس — يتحرك بين صفوف المسلمين يحضهم على الصبر. ثم رأى المعتمد ومن معه خصومهم يتراجعون، فحملوا عليهم، والتقت حركة سير بن أبي بكر بالضغط الذي أحدثه يوسف من جهة المعسكر.²⁰⁶ لم يقع التحول في ضربة

203 ابن أبي زرع، روض القرطاس، طبعة 1917: اتجه يوسف إلى محلة ألفونسو أثناء انشغال الأخير بالقتال. الشاهد المباشر.

204 ابن أبي زرع، روض القرطاس، طبعة 1917: إحراق المحلة ورجوع الفارين منها، وتقدم يوسف بصفوفه وطبوله. الشاهد المباشر.

205 ابن أبي زرع، روض القرطاس، طبعة 1917: سؤال ألفونسو عما حدث وتحوله إلى قتال يوسف. الشاهد المباشر.

206 ابن أبي زرع، روض القرطاس، طبعة 1917: تحريض يوسف للمسلمين، ثم حمل المعتمد وسير عند تراجع الخصم. الشاهد المباشر.

منفردة، بل من تتابع أعمال: ثبات من لم يهزم، ونجدة وصلت في وقتها، وضرب لمعسكر الخصم، ثم هجوم على قوة اضطرت إلى القتال وهي ترى مؤنتها ومحلتها وراءها تحترق. وفي هذا التتابع تصبح البطولة أوسع من فارس مفرد؛ داود أدى وظيفة الثبات، والمعتمد منع جبهته من أن تنطفئ كلها، وسير حمل النجدة، ويوسف اختار جهة الحركة التي غيرت ضغط المعركة. هكذا تصنع القيادة أثرها من وصل الأعمال بعضها ببعض، لا من إلغاء أدوار الرجال حولها.

جرح ألفونسو وحدود الأعداد

يفيد كتاب الفتح الذي حفظه ابن أبي زرع أن ألفونسو فر مطعوناً في إحدى ركبتيه، واحتذى بموضع مرتفع ينتظر الليل.²⁰⁷ أصيب الملك وانكسر جيشه، لكن خروجه من الميدان أبقاه طرفاً في الحرب التي ستستمر بعد ذلك اليوم.

وتختلف الأخبار في عدد من خرج معه. يجعل روض القرطاس الخارجين أول الأمر نحو خمسمائة، ثم يقول إن مائة وصلوا طليطلة؛ أما ابن خلكان فيجعل الناجين دون الثلاثين. وهذه

207 روض القرطاس ص 97/صفحة الملف 98: كتاب الفتح يذكر طعن ألفونسو في إحدى ركبتيه ولجؤه إلى موضع مرتفع؛ لا يعين الطاعن ولا يذكر خنجرًا أو التصاق اللحم بالسرّج. الشاهد المباشر.

الأرقام لا يمكن جمعها في رقم واحد ثم وصفه بالمحقق. يكفي المعنى الذي تشترك فيه الروايات: انكسر جيش ألفونسو، وخرج الملك جريحاً في جماعة قليلة قياساً إلى الحشد الذي دخل به المعركة.²⁰⁸

ما الذي ثبت بعد انفضاض الغبار؟

يذكر روض القرطاس نحو ثلاثة آلاف من قتلى المسلمين، لكنه يروي أيضاً أعداداً ضخمة جداً لجيش ألفونسو ورؤوس القتلى؛ وهي أرقام لا يعتمد عليها هذا الكتاب بلا موازنة مستقلة.²⁰⁹ ويثبت ابن خلكان أن المسلمين جمعوا الغنائم، وأن يوسف عفا عنها وآثر بها ملوك الأندلس، معلناً أن قصده الغزو لا النهب. هذا الفعل أوثق دلالة على الرجل من المواعظ المصنوعة: قائد عبر البحر، ظفر، ثم ترك مال الميدان لأهل البلاد.²¹⁰

أما أثر الزلافة، فلا يحتاج إلى دعوى أنها أوقفت مسار الحرب قرنين ونصفاً. وتظهر في الأخبار آثار مباشرة واضحة: رفع حصار

208 روض القرطاس ص 96/صفحة الملف 97: خروج ألفونسو في نحو خمسمائة ووصول مائة بحسب الرواية؛ ابن خلكان ج 7 ص 117 يذكر دون الثلاثين. الشاهد المباشر.

209 روض القرطاس ص 96/صفحة الملف 97: نحو ثلاثة آلاف من قتلى المسلمين، مع أعداد ضخمة أخرى حفظت بوصفها رواية لا حقيقة رقمية محققة. الشاهد المباشر.

210 ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج 7 ص 117: جمع الغنائم أربعة أيام وعفو يوسف عنها وإيثاره ملوك الأندلس بها وقوله إن مقصوده الغزو لا النهب. الشاهد المباشر.

سرقسطة قبل المعركة، وانكسر جيش ألفونسو فيها، واستعاد المسلمون قدرةً على المبادرة. وما بعد ذلك سيبين أن النصر لم يمه الخطر؛ فقد بقيت الحصون والهجمات واختلاف ملوك الطوائف، واضطر يوسف إلى عبور ثانٍ ثم إلى قرار أشد أثراً من المعركة نفسها. وهذا يضع النصر في حجمه الصحيح: يوم عظيم رد خطراً حاضراً وكشف إمكان جمع القوة، لكنه لم يبدل وحده بنية الأندلس ولا يمح خصومات أمرائها. ويختلف المؤرخان في تاريخ اليوم: الخامس عشر من رجب عند ابن خلكان، والثاني عشر منه عند روض القرطاس، مع قول ثالث في أواخر رمضان. وبعد أيام من جمع الغنائم أزمع يوسف الرجوع، وتربط إحدى الروايات عودته بخبر وفاة ابنه أبي بكر بسببته. لذلك يثبت المتن السنة 479هـ، ويترك اختلاف اليوم وسبب الرجوع في حدود الرواية، فلا يصنع يقيناً مما لم تتفق عليه الأخبار. كان الرجوع نهاية العبور الأول فقط؛ وخلفه بقي السؤال: هل تكفي النجدة المؤقتة إذا بقيت أسباب الضعف في مواضعها؟ أم أن قائداً يعبر كلما اشتد الخطر سيجد نفسه، في كل مرة، يعالج النتيجة ويترك أصل الداء؟²¹¹

211 روض القرطاس ص 98/صفحة الملف 99: 12 رجب وخبر وفاة أبي بكر وربط العودة به؛ ويقابله ابن خلكان في 15 رجب أو أواخر رمضان وترك الغنائم. اقتصر المتن على الأثر المباشر. الشاهد المباشر.

الفصل الثلاثون بعد الزلاقة الغنيمة، النعي، والرجوع

أربعة أيام بعد الصخب

سكتت طبول القتال، لكن الميدان لم يفرغ في ساعة. يروي ابن خلكان أن العساكر أقامت بالزلاقة أربعة أيام تجمع الغنائم؛ وهي مدة تكشف ضخامة ما خلفته الواقعة من سلاح وخيل وأثاث، من غير أن تبيح لنا اختراع قوائم لم يذكرها الشاهد.²¹² وفي الرواية نفسها يرد الفعل الذي بقي ألصق بصورة يوسف بعد النصر: عفا عن الغنائم وآثر بها ملوك الأندلس.²¹³

ويختصر ابن خلكان غرضه في قوله: «عرفهم أن مقصوده إنما كان الغزو لا النهب».²¹⁴ يتصل هذا البيان بالفعل الذي يرويهِ؛ فالقائد الذي ظفر اختار أن يترك الغنيمة لحلفائه.

212 ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج 7، ص 117 بحسب الصفحة الإلكترونية، في إقامة العساكر أربعة أيام بعد الزلاقة لجمع الغنائم. النص المباشر.

213 ابن خلكان، الموضوع نفسه، في عفو يوسف عن الغنائم وإيثاره ملوك الأندلس بها. لا يحدد النص مقادير الأنصبة ولا يفصل جميع المستفيدين. النص المباشر.

214 ابن خلكان، الموضوع نفسه: «وعرفهم أن مقصوده إنما كان الغزو لا النهب». النص المباشر.

تلقى ملوك الأندلس هذا الإيثار بالشكر والاستكرام، وفق رواية ابن خلكان.²¹⁵ ولم يكن ذلك تفصيلاً مالياً فحسب؛ فقد رسم حدود العبور الأول: يوسف جاء يومئذ نصيراً، ولم يجعل النصر ذريعة فورية لاقتسام بلاد المستجدين به. هذه دلالة يستخرجها ترتيب الوقائع، لا نصاً منسوباً إليه.

خبر في طريق العودة

بعد جمع الغنائم عزم يوسف على الرجوع إلى بلاده.²¹⁶ وكان قد استخلف ابنه أبا بكر على المغرب عند عبوره الأول، وتركه مريضاً في سبتة، بحسب نقل عنان عن روض القرطاس.²¹⁷

وفي طريق ارتداد الجيوش المرابطية نحو البحر، وصلت إلى يوسف في إشبيلية أنباء وفاة ابنه.²¹⁸ وينقل عنان أن صاحب روض القرطاس يجعل وصول النبأ في يوم النصر نفسه؛ وهذه صيغة

215 ابن خلكان، الموضع نفسه، في استكرام ملوك الأندلس يوسف ومحبتهم وشكرهم له بعد إيثارهم بالغنائم. هذه رواية المصدر ولا تكفي وحدها للحكم على موقف كل ملك. النص المباشر.

216 ابن خلكان، الموضع نفسه: «ثم إن يوسف بن تاشفين أزمع الرجوع إلى بلاده». النص المباشر.

217 محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ج3، ص45 بحسب النص الإلكتروني، ناقلاً عن روض القرطاس: استخلاف أبي بكر عند العبور الأول، وتركه مريضاً في سبتة. النص المباشر.

218 عنان، الموضع نفسه، في ارتداد الجيوش المرابطية إلى إشبيلية في طريق العودة وتلقى يوسف نبأ وفاة أبي بكر. النص المباشر.

تُنسب إلى الرواية ولا تتحول إلى تاريخٍ مقطوع به ما لم تقابل طرق
الخبر الأخرى.²¹⁹

لا يصف الشاهد دموعاً في خلوة، ولا مجلساً عائلياً، ولا الكلمات
التي قالها الأب حين سمع. لذلك لا يملأ هذا الكتاب صمت المصدر
بمشهد عاطفي متخيل. يكفي أن الرجل خرج من يوم انتصر فيه
جيشه إلى خبر فقد ابنه؛ واجتماع النصر والمصيبة في زمن
متقارب معنى إنساني قائم بذاته، لا يحتاج إلى حوار مصنوع.

يرى عنان أن وفاة أبي بكر عجّلت برجوع يوسف، وينقل قولاً
يجعلها سبباً في ترك مطاردة المنهزمين.²²⁰ والأدق أن يبقى السببان
على درجتهم: التعجيل بالعودة تفسير تؤيده الرواية، أما بناء خطة
عسكرية كاملة ثم الجزم بأنها ألغيت بسبب النعي فقول منقول
يحتاج إلى موازنة أوسع.

رجع يوسف من عبوره الأول وقد انكسر جيش قشتالة، واستبقى
ملوك الأندلس سلطانهم وغنائم الميدان. وبقي السؤال: هل تحول
وحدة الزلافة إلى سياسة باقية، أم تنقضي بانقضاء الخطر؟

219 عنان، الموضع نفسه، ينسب إلى صاحب روض القرطاس أن النبأ وصل يوم النصر؛ أبقيت
النسبة ولم يُقدّم التوقيت بوصفه محل اتفاق. النص المباشر.

220 عنان، الموضع نفسه، يرى أن وفاة أبي بكر عجّلت بعودة يوسف، وينقل قولاً يجعلها سبباً في
ترك المطاردة. حفظ المتن الفرق بين تفسير الدراسة والقول المنقول. النص المباشر.

الفصل الحادي والثلاثون العبور الثاني حصن لبيط وما كشفه المعسكر 481هـ

شكوى لا تأتي من قصر واحد

بعد سنتين من الزلافة لم يصل إلى مراکش رسول ملك واحد يطلب نجدة عاجلة، بل تتابع عليها - في رواية الحلل الموشية - وجوه من بلنسية ومرسية ولورقة وبسطة.²²¹ كانت الشكوى مزدوجة: حصار القمبيطور لبلنسية، ثم حصن لبيط القائم على جبل بينه وبين لورقة نحو نصف يوم، تخرج منه السرايا شرقاً وغرباً لأنه توسط بلاد المسلمين.²²²

تردد أولئك الوجوه على يوسف حتى وعدهم بالجواز إذا أمكنه الفصل. لا تسعفنا الرواية بقسم مغلظ ولا بمجلس استغاثة مصوغ في خطبة؛ إنما تقدم صورة أهدأ وأقوى دلالة: أصحاب ثغور يكررون الشكوى، وأمير يؤخر الوعد حتى يتيأ له تنفيذه.

221 مؤلف مجهول، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة، ط1، 1399هـ/1979م، ص66-67: وفود وجوه بلنسية ومرسية ولورقة وبسطة على يوسف بعد الزلافة بسنتين. النص المباشر.

222 الحلل الموشية، ص67: وصف لبيط بأنه حصن على جبل بينه وبين لورقة نصف يوم، وأن سراياه كانت تغير شرقاً وغرباً لتوسطه بلاد المسلمين. النص المباشر.

ثم جاء المعتمد بن عباد بنفسه إلى المغرب. تذكر الرواية أن يوسف تلقاه عند المعمورة على حلق وادي سبو، وسأله عن سبب مجيئه بدل أن يكتب بحاجته.²²³ وجاء جواب المعتمد على قدر المقام: قصد الجهاد والانتصار للدين، وخص حصن لبيط بالذكر لما بلغ من أذاه وتوسطه في بلاد المسلمين.²²⁴ قبل يوسف المقصد ووعده بالحركة، فعاد المعتمد إلى إشبيلية يهيئ الرجال وآلات الحصار.

حين اجتمع المختلفون حول حصن واحد

كان الجواز الثاني سنة إحدى وثمانين وأربعمائة بحسب الحلل الموشية.²²⁵ نزل يوسف الجزيرة الخضراء، ثم كتب إلى ملوك الأندلس يستدعيهم للجهاد وجعل الموعد حصن لبيط.²²⁶ مر بمالقة فاستنفر تميم بن بلقين، ثم لحق به أخوه عبد الله صاحب غرناطة،

223 الحلل الموشية، ص 68: عبور المعتمد إلى المغرب، ولقاؤه يوسف بالمعمورة على حلق وادي سبو، وسؤال يوسف عن سبب حضوره بدل الكتابة. الاقتباس في المتن تلخيص لا تنقيص. النص المباشر.

224 الحلل الموشية، ص 68: جواب المعتمد بأنه جاء احتساباً وجهاداً وانتصاراً للدين، وذكره أذى حصن لبيط وتوسطه بلاد المسلمين. المطابقة نصية؛ صحة الحوار التاريخية تبقى في حدود رواية المصدر. النص المباشر.

225 الحلل الموشية، ص 66: جعل الجواز الثاني سنة 481هـ. لا يحدد هذا الموضع شهر العبور. النص المباشر.

226 الحلل الموشية، ص 68-69: نزول يوسف بالجزيرة الخضراء وكتابه إلى ملوك الأندلس واستدعاؤهم للجهاد، وتحديد الموعد عند حصن لبيط. النص المباشر.

والمعتصم بن صمادح صاحب ألمرية، ورؤساء من شقورة وبسطة وجيان وغيرها.²²⁷

وجاء من مرسية النجارون والبنائون والحدادون؛ فالحصار يحتاج إلى صناعة الآلات وإصلاحها كما يحتاج إلى المقاتلين.²²⁸ وأحاطت القوات بالحصن، وفيه فرسان ورجال يحتمون بمنعته.²²⁹ كان الحصن منيعاً، ورأى المحاصرون أن أخذه لا يكون باقترام قريب، بل بالمطاوله وقطع الميرة عمن فيه.²³⁰ وهنا ظهر أن الخطر خلف السور لم يبلغ الحصومة داخل المعسكر.

قضية ابن رشيق الحكم الذي أصاب الميرة

وصل ابن رشيق صاحب مرسية، وهو ثائر على المعتمد. شك المعتمد أمره إلى يوسف، وذكر أنه انتزى على مرسية وأنه دفع

227 الحلل الموشية، ص 69: استنفار تميم صاحب مالقة، ولحق عبد الله صاحب غرناطة، والمعتصم بن صمادح، ورؤساء شقورة وبسطة وجيان وغيرها. النص المباشر.

228 الحلل الموشية، ص 69: محيي التجارين والبنائين والحدادين من مرسية، ثم إحاطة المحلة بالحصن. التحليل في المتن معن بوصفه قراءة لدلالة الخبر. النص المباشر.

229 الحلل الموشية، ص 69، يذكر في حامية لبيط ألف فارس واثنى عشر ألف راجل. أبقى المتن وصف الحامية دون تبني العدد إحصاءً محققاً. صورة الصفحة.

230 الحلل الموشية، ص 69-70: وصف منعة الحصن واستعصائه، وأن أخذه يحتاج إلى المطاوله وقطع القوات. النص المباشر.

جبايتها مصانعة لألفونسو.²³¹ لا يجيز هذا النقل أن ننشئ جواباً لابن رشيق أو أن نصف باطن الرجلين؛ الذي بين أيدينا دعوى رفعها المعتمد، ثم تحكيم في الواقعة.

استفتى يوسف الفقهاء، فلما وجب الحكم على ابن رشيق أمر بالقبض عليه وتسليمه إلى المعتمد، ونهاه عن قتله.²³² احتجزه المعتمد، فهرب أصحابه وقرابته ومن كان معه إلى مرسية، وامتنعوا بالميرة عن المحلة.²³³ اختلت أحوال المعسكر وارتفعت الأسعار وضاق الناس؛ وهكذا دخل نزاع الحكم إلى قلب الحصار من طريق الطعام، لا من طريق خطبة سياسية مصنوعة.

في هذه الواقعة تظهر صعوبة القيادة على حقيقتها: يوسف لم يكن يقود جيشاً واحداً البنية، بل جماعات اجتمعت على هدف قريب، وبقيت لكل جماعة خصوماتها وحساباتها. وهذه قراءة للوقائع، لا دعوى بأن المصدر كشف لنا سرائرهم.

231 الحلل الموشية، ص 69: حضور ابن رشيق وشكوى المعتمد أنه انتزى على مرسية ودفع جبايتها مصانعة لألفونسو. صيغت الدعوى منسوبة إلى المعتمد، لا حقيقةً محققةً مستقلة. النص المباشر.

232 الحلل الموشية، ص 70: استفتاء يوسف الفقهاء، والحكم على ابن رشيق، وأمر يوسف بالقبض عليه وتسليمه إلى المعتمد مع النهي عن قتله. النص المباشر.

233 الحلل الموشية، ص 70: احتجاز المعتمد لابن رشيق، ثم هرب أصحابه وقرابته ومحلته إلى مرسية ومنعهم الميرة عن معسكر الحصار. النص المباشر.

انسحاب محسوب ونهاية لم تكن فتحاً

استصرخ أهل الحصن ملكهم، فجمع ألفونسو وسار لنجدتهم.²³⁴ رأى يوسف أن الغاية الأقرب لألفونسو تخليص رجاله وإخلاء الحصن، فراجع بالحلة إلى برشانة، حيث الماء والتمر، استعداداً للقاءه.²³⁵ لم يقع اللقاء الذي تنتظره الحبكة السهلة؛ وصل ألفونسو إلى لبيط، فأحرق الحصن وأخرج من كان فيه.²³⁶

ومع ذلك لم ينفذ يوسف يده من شرق الأندلس. جرد من جيشه قوة تزيد - في رواية الحلل - على أربعة آلاف فارس إلى بلنسية، ثم أردفها بجيش آخر قدم عليه محمد بن تاشفين.²³⁷ وبعد ذلك عاد إلى العدو، وتحرك الأمراء إلى بلادهم. كانت الحملة قد أزلت موضعاً متقدماً للخصم، لكنها لم تنتج فتحاً حاسماً، وكشفت أن اجتماع يوم واحد لا يصنع جبهة باقية.

234 الحلل الموشية، ص70: استصرخ أهل الحصن سلطانهم، وأخذ ألفونسو في الحشد وقصده لبيط. النص المباشر.

235 الحلل الموشية، ص70: انتقل يوسف بالحلة إلى برشانة، موضع الماء والتمر، واستعداده للقاء ألفونسو مع تقديره أن غاية خصمه تخليص رجاله. التقدير منسوب إلى الرواية. النص المباشر.

236 الحلل الموشية، ص70: وصول ألفونسو إلى الحصن وإحراقه وإخراج من كان فيه. النص المباشر.

237 الحلل الموشية، ص70: تجريد يوسف جيشاً يزيد على أربعة آلاف فارس إلى بلنسية، ثم إردافه بجيش آخر بقيادة محمد بن تاشفين. الرقم محفوظ بوصفه رواية المصدر لا إحصاءً مستقلاً. النص المباشر.

الفصل الثاني والثلاثون من ليط إلى تغير السياسة

ماذا بلغ يوسف؟

يروي صاحب الحلل الموشية أنه نُقل إلى يوسف، وهو على حصن ليط، كلام عن ملوك الأندلس أغضبه وأوغر صدره عليهم.²³⁸ لا يسمي في هذا الموضع قائل الكلام ولا يسوق نصه، لذلك يبقى مقدار ما نعرفه من الخبر محدوداً، وإن جعل له المؤلف أثراً في تغير العلاقة.

وفي رواية صاحب الحلل أن ذلك الخبر أزعج يوسف إلى العدو، وأن تغيره عليهم وإعراضه عنهم تبيناً للملوك.²³⁹ تقول الرواية إن كل واحد منهم أخذ ينظر لنفسه «بغاية عزمه»؛ وهي عبارة تصلح لوصف خوف سياسي بدأ يتشكل، ولا تصلح وحدها لإثبات تفاصيل كل مراسلة أو نسبة خيانة بعينها إلى كل ملك.²⁴⁰

238 الحلل الموشية، ص 71: نقل كلام عن ملوك الأندلس إلى يوسف عند ليط أغضبه وأوغر صدره. لا يسمي المصدر ناقله ولا يورد نصه. النص المباشر.

239 الحلل الموشية، ص 71: أن الكلام المنقول أزعج يوسف إلى العدو، وأن تغيره عليهم وإعراضه عنهم تبيناً للملوك. النص المباشر.

240 الحلل الموشية، ص 71: ملاحظة الملوك تغير يوسف، ونظر كل واحد لنفسه «بغاية عزمه». أبقى اللفظ منسوباً إلى المصدر ولم يُجمل تفاصيل مراسلات غير مذكورة. النص المباشر.

بين العبور الثاني والثالث

لم يتحول الخلاف في النص إلى قرار معلن فوراً. عاد يوسف، وبقيت المسافة بينه وبين ملوك الطوائف تحمل ما ظهر في لبيط من هشاشة الاجتماع. ثم تجعل الحلل الموشية جوازه الثالث سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة، وتربطه بما بلغه على حصن لبيط من كلام الملوك.²⁴¹

هذا التسلسل مهم: الحصار لم يكن مجرد واقعة عسكرية فاشلة، بل صار نقطة معرفة. ففي الزلافة رأى يوسف إمكان جمع القوة عند اشتداد الخطر، وفي لبيط رأى كيف تستطيع خصومة داخلية أن تقطع الميرة عن المحلة وهي تحاصر عدواً مشتركاً. أما الانتقال من هذه المعرفة إلى ضم الممالك فسيحتاج إلى أخبار كل مدينة ووقائعها، لا إلى حكم إجمالي سابق عليها.

غرناطة أولاً

في العبور الثالث استقبل المعتمد يوسف على عادته بالتعظيم والضيافة.²⁴² ثم تابعت إلى يوسف أخبار من عبد الله بن بلقين

241 الحلل الموشية، ص 71: جعل الجواز الثالث سنة 483هـ وربطه بما نُقل إلى يوسف عند لبيط. النص المباشر.

242 الحلل الموشية، ص 71: استقبل المعتمد ليوسف في الجواز الثالث بالتعظيم والضيافة. النص المباشر.

أغضبته عليه، فاستنزل أخاه تميماً من مالقة وتوجه إلى غرناطة.²⁴³
خرج عبد الله للقاءه، وسلم عليه وترجل له، ثم دخل يوسف معه
البلد وتسلم الأمر.²⁴⁴

أقام يوسف ينظر في توطيد غرناطة وترتيب شؤونها، ثم حمل عبد
الله وأخاه تميماً إلى العدو وأسكنهما بأغمت.²⁴⁵ كان انتقال
الحكم قد وقع؛ فلم يعد الخلاف في مراسلات أو مخاوف يتبادلها
الأمرء، بل صار مدناً يفقد أصحابها سلطانهم عليها.

ما تقوله الخاتمة وما لا تقوله

تنسب الرواية إلى المعتمد كلاماً يدل على ندمه على استدعاء
يوسف، وتنقل حواراً بينه وبين ابنه الرشيد؛ لكنه خبر أورده
مصدر متأخر، فيبقى منسوباً إليه ولا يتحول إلى نافذة يقينية على ما
دار في مجلس خاص.²⁴⁶ ثم يذكر المؤلف أن سنة أربع وثمانين

243 الحلل الموشية، ص 71: توالي الأخبار من عبد الله بن بلقين بما أغضب يوسف، ثم استنزل
تميم من مالقة والتوجه إلى غرناطة. الخبر منسوب إلى المصدر ولا يثبت محتوى الأخبار. النص
المباشر.

244 الحلل الموشية، ص 71: خروج عبد الله للقاء يوسف، وترجله له، ودخوله معه غرناطة
وتسليم الأمر. النص المباشر.

245 الحلل الموشية، ص 71: إقامة يوسف لتوطيد البلد، ثم حمل عبد الله وأخيه تميم إلى العدو
وإسكانهما بأغمت. النص المباشر.

246 الحلل الموشية، ص 72: خبر ندم المعتمد والحوار المنقول بينه وبين ابنه الرشيد. المطابقة
للنص، والثبوت التاريخي مقيد بأن الكتاب متأخر وأنه يروي مجلساً خاصاً بلا سند ظاهر في

شهدت تحريك يوسف جيوش المرابطين من سبتة لمنازلة ملوك
الطوائف في بلادهم.²⁴⁷

وزع القيادة: سير بن أبي بكر إلى إشبيلية، وأبو عبد الله بن الحاج
إلى قرطبة، ووجه جيشا إلى ألمرية وآخر إلى رندة حيث يزيد
الراضي ابن المعتمد.²⁴⁸ هنا انتهت مرحلة النجدة العارضة وبدأت
مرحلة توحيد السلطة بالقوة. أما وصف هذا التحول بأنه فتوى
سبقت كل حركة أو مؤامرة ثبتت على جميع الملوك، فذلك ما لا
ينهض به هذا الشاهد، وستفصل الفصول الآتية ترتيب الزمن
وأخبار المدن.

الموضع. النص المباشر.

247 الحلل الموشية، ص 72: تحرك يوسف سنة 484هـ إلى سبتة لتجوز العساكر اللتونية إلى

الأندلس لمنازلة ملوك الطوائف. النص المباشر.

248 الحلل الموشية، ص 72-73: توزيع الجيوش على إشبيلية وقرطبة وألمرية ورندة، وتقديم سير

بن أبي بكر على جيش إشبيلية وأبي عبد الله بن الحاج على جيش قرطبة. النص المباشر.

الفصل الثالث والثلاثون فتوى الغزالي سند لاحق لا إذن سابق

ترتيب الزمن قبل الحكم

ليس الخلاف هنا في مكانة الغزالي، بل في موضع وثيقته داخل القصة. تذكر الدراسة التي نشرت خلاصة الفتوى أن الفقيه ابن العربي وولده أبا بكر خرجا إلى المشرق في ربيع الأول سنة 485هـ. وكان يوسف قد عبر إلى الأندلس عبوره الثالث سنة 483هـ، وبدأ الاستيلاء على ممالك الطوائف قبل وصول ابن العربي إلى بغداد.²⁴⁹ بهذا الترتيب وحده يسقط تصوير الفتوى على أنها الإذن الذي انتظره يوسف قبل أن يبدأ الضم.

ثم يجيء قيد أشد وضوحاً: النص المنقول للفتوى يذكر الخليفة المستظهر بالله، ولم يتولّ المستظهر إلا في المحرم سنة 487هـ. ولهذا رجّح ناشر النص أن الفتوى ترجع إلى سنة 487هـ أو بعدها. أما

249 محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ج3، ص41-43 بحسب النص الإلكتروني. يذكر خروج ابن العربي وولده سنة 485هـ، وعبور يوسف الثالث سنة 483هـ، ويعرض خلاصة فتوى الغزالي من المخطوط رقم 1275ك بالخزانة الكمانية (اللوحتان 128-129)، ثم ينبه إلى أن ذكر المستظهر يرجح سنة 487هـ أو بعدها. ويتابع عرض كتاب الغزالي في ص43. المعاينة لنص عنان الإلكتروني، لا لصور المخطوط. ص41، ص42، ص43.

كتاب الغزالي إلى يوسف فربطه بما قبل سفر الغزالي إلى الحجاز سنة 488هـ. وتذكر الرواية نفسها أن أبا بكر بن العربي عاد إلى الأندلس بالرسالتين والمرسوم الخلافي سنة 493هـ، بعد وفاة أبيه في الإسكندرية.²⁵⁰

هذه التواريخ لا تبطل الوثيقة؛ بل تمنع تحميلها وظيفة زمنية لم تؤدها. الفتوى تصلح شاهداً على تأييد فقهي لاحق لسلطان يوسف وموقفه من المتمردين المستعنيين بالنصارى، ولا تصلح — بهذه القراءة — دليلاً على أنه لم يتحرك خطوة حتى وردته من بغداد.

ماذا تقول الخلاصة المنشورة؟

بحسب النص الذي عرضه محمد عبد الله عنان عن مخطوط بالخزانة الكنائية في الرباط، بنت الفتوى حجتها على إعلان يوسف الطاعة للخليفة العباسي المستظهر، وعلى ما شاع من عدله وسياسته. وجعلت الخارج على الأمير القائم بهذا التفويض في حكم الباغي، ولا سيما إذا استعان بالنصارى على المسلمين، مع وجوب الكف عنه إذا عاد إلى الطاعة. كما ربطت تمام الشرعية السياسية بوصول

250 محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ج3، ص41-43 بحسب النص الإلكتروني. يذكر خروج ابن العربي وولده سنة 485هـ، وعبور يوسف الثالث سنة 483هـ، ويعرض خلاصة فتوى الغزالي من المخطوط رقم 1275ك بالخزانة الكنائية (اللوحتان 128-129)، ثم ينبه إلى أن ذكر المستظهر يرجح سنة 487هـ أو بعدها. ويتابع عرض كتاب الغزالي في ص43. المعاينة لنص عنان الإلكتروني، لا لصور المخطوط. ص41، ص42، ص43.

منشور صريح من الخلافة إذا أمكن إيصاله، وعدت على الخليفة السعي في إطفاء الفتنة.²⁵¹

وفي كتاب الغزالي إلى يوسف — كما تلخصه الدراسة — عرض^ق لتفرق ملوك الطوائف، واستطالة النصارى، ثم لاستنجادهم بيوسف وعبوره للجهاد، وما أعقب ذلك من رفع المظالم وقطع الفساد وإيثار العلماء والاستماع إلى فتاواهم. أما الطرطوشي، فتنسب إليه الدراسة كتاب نصيح في الحكم بالحق، والشفقة على الرعية، وإقامة الصلاة والزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.²⁵²

ثلاثة أشياء لا ينبغي دمجها

يكشف هذا الباب ثلاث دوائر متقاربة، لكنها ليست شيئاً واحداً: قرار يوسف العسكري والسياسي الذي بدأ سنة 483هـ،

251 محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ج3، ص41-43 بحسب النص الإلكتروني. يذكر خروج ابن العربي وولده سنة 485هـ، وعبور يوسف الثالث سنة 483هـ، ويعرض خلاصة فتوى الغزالي من المخطوط رقم 1275ك بالخزانة الكائنية (اللوحتان 128-129)، ثم ينبه إلى أن ذكر المستظهر يرجح سنة 487هـ أو بعدها. ويتابع عرض كتاب الغزالي في ص43، المعاينة لنص عنان الإلكتروني، لا لصور المخطوط. ص41، ص42، ص43.

252 عنان، المصدر نفسه، ج3، ص43-44، في خلاصة كتاب الغزالي ونصيحة الطرطوشي، وتحديد ألواح خطاب الغزالي 130-133 وخطاب الطرطوشي 133-134، وعودة أبي بكر بن العربي بالرسالتين والمرسوم سنة 493هـ. النقل بواسطة عنان؛ لم تقابل صورة المخطوط الذي وصفه. ص43، ص44.

والفتوى الفقهية التي يرجح تأخيرها إلى 487هـ أو بعدها؛ والمنشور
العباسي الذي منح السلطان القائم غطاء الخلافة. دمج الدوائر
الثلاث في مجلس واحد يجعل السرد أكثر إحكاماً ظاهرياً، لكنه
يفسد التاريخ.

تفسر الوثائق مساراً امتد سنوات: سلطة قامت بالفعل، ثم سعى
أصحابها إلى تثبيت صلتها بالخلافة، واستمدوا من علماء المشرق بياناً
فقهياً لطاعتها وحدود قتال الخارجين عليها. قراءة الوثيقة في زمنها
تحفظ لها دلالتها، وتمنع أن تتحول إلى سبب متقدم لقرار عسكري
سبق ورودها.

الفصل الرابع والثلاثون إشبيلية ومحنة المعتمد

الحليفان على طرفي الحرب

كان المعتمد حليفاً ليوسف في الزلافة. وبعد أعوام صار جيش المرابطين يحاصر إشبيلية التي يحكمها. ومن أصعب ما في هذه المرحلة أن القارئ يعرف للرجلين عملاً مشتركاً في دفع ألفونسو، ثم يراهما في خصومة تنتهي بزوال ملك أحدهما وأسرهما. لا تفسر هذه النقلة بصفة واحدة تلصق بهذا أو ذاك؛ بل بمتابعة الأخبار التي تضع التعاون والخلاف في زمانيهما.²⁵³

يبدأ المراكشي «نكبة بني عباد» بخبر عن تدبير يوسف في الأندلس، ويورد كلاماً نسبته إليه بصيغة «بلغني». ثم يذكر إرسال رجال للرباط، وأخذ طريف في شوال 483هـ، وانتقال القتال إلى قرطبة، حيث قتل المأمون ابن المعتمد في مستهل صفر 484هـ. هذه رواية المصدر عن تتابع الأحداث؛ أما النية الباطنة التي يفسر بها التدبير فلا ترتفع بصيغة البلاغ إلى خبر قطعي عن نفس يوسف.²⁵⁴

253 ابن الأثير، الكامل، حوادث 479هـ و484هـ؛ دور المعتمد في الزلافة ثم حصار إشبيلية. الكتاب في موضعي الخبرين.

كان فقد قرطبة وما فيه من فقد الابن جزءاً من اقتراب الحرب من إشبيلية. وفي رواية المراكشي حركة داخل المدينة وخارجها، وأخبار عن محاولة بعض الناس الثورة وعن بقاء آخرين على الوفاء للمعتمد. لذلك لا نقول إن أهل إشبيلية جميعاً ثاروا على ملكهم، ولا إنهم جميعاً كانوا على موقف واحد. تضع الحرب المدينة أمام اختيارات تختلف باختلاف الناس ومواقفهم.²⁵⁵

النجدة التي لم تصل

يذكر ابن الأثير أن قوة من الفرنج خرجت لمساعدة المعتمد، وأن سير بن أبي بكر، قائد المرابطين، فارق حصار إشبيلية للقائها، فهزمها ثم عاد إلى المدينة.²⁵⁶ أخفقت النجدة، وبقي المعتمد يواجه الحصار بما في يده من قوة.

بقيت إشبيلية بعد ذلك أمام الحصار. ويثني ابن الأثير على شجاعة المعتمد وحسن دفاعه عن بلده، كما يذكر المراكشي إقدامه بنفسه على القتال. ليس من الإنصاف أن يحجب انخياز القارئ إلى

254 المراكشي، المعجب، «نكبة بني عباد»، الفقرات التي تبدأ «فبلغني» ثم خبر طريف وقرطبة. النص.

255 المراكشي، المعجب، «نكبة بني عباد»، من خبر الثورة بإشبيلية إلى محيى سير بن أبي بكر. نقل بالمعنى مع تجنب تعميم موقف فريق على أهل المدينة. النص.

256 ابن الأثير، الكامل، حوادث 484هـ، فقرة «وكانت الفرنج قد سمعوا بقصد عساكر المرابطين». الشاهد.

مشروع يوسف هذا الجانب من خصمه؛ فالشجاعة تثبت لصاحبها حيث تشهد لها الرواية، ولا تصبح ملكاً حصرياً للفريق المنتصر.²⁵⁷

وفي رجب 484هـ دخل المرابطون إشبيلية. يحدد ابن الأثير يوم الدخول بالعشرين من الشهر، ويذكر المراكشي الحادي والعشرين. ثبت الشهر والسنة في سياق السيرة، وترك اختلاف اليوم ظاهراً في الحاشية؛ فليس لدينا ما يبيح اختراع توفيق يحول الروایتين إلى تاريخ واحد لا خلاف فيه.²⁵⁸

ما وقع بعد الدخول

يروى المصدران نهباً أصاب المدينة والقصور، وأسر المعتمد وأهله. ويورد ابن الأثير بعد خبر الدخول رواية أخرى بصيغة «وقيل»، مؤداها أن المعتمد سلم بأمان لم يوف له به. لا نستطيع دمج الاقتحام والتسليم في رواية جازمة واحدة، لكن اختلاف كيفية النهاية لا يلغي اتفاق الخبرين على الأسر وذهاب السلطان.²⁵⁹

257 ابن الأثير، الكامل، حوادث 484هـ، وصف دفاع المعتمد؛ والمراكشي، المعجب، «نكبة بني عباد»، خبر اليوم الأخير. الكامل، المعجب.

258 الكامل، الخبر السابق: 20 رجب، والمعجب، «نكبة بني عباد»: 21 رجب 484هـ. لم يرحم الكتاب أحد اليومين. الأول، الثاني.

259 ابن الأثير، الكامل، حوادث 484هـ، خبر النهب والأسر ثم الرواية المصدرة بـ«وقيل» في الأمان، والمراكشي، المعجب، «نكبة بني عباد». الكامل، المعجب.

هذه هي النقطة التي لا يصح أن يتحول عندها الكتاب إلى مرافعة تبرر كل فعل. فالحديث عن جمع الكلمة والدفاع عن الثغور لا يجعل أموال الناس وأبدانهم خارج النظر، والخبر عن نهب مدينة لا يبطل من تلقائه ما وقع قبل ذلك من جهاد. إنصاف السيرة أن تبقى الوقائع كلها في مواضعها، وأن يسأل القارئ عن مسؤولية السلطان كما يسأل عن كفاءة القائد.

ويذكر المراكشي أن المعتمد حمل على الكتابة إلى ابنه المعتد والراضي ليتركا ما بأيديهما من حصون. ثم يسرد ما أصابهما، ويذكر في خبر الراضي أنه قتل غيلة بعد نزوله. ولا تجعل هذه التفاصيل كلها أمراً مباشراً من يوسف ما لم يثبت طريق الأمر؛ لكنها، بوصفها أخباراً عن جند دولته، تدخل في بحث تبعات الضم ومحنة الأسرة، ولا تحذف لمجرد أنها تثقل الصورة.²⁶⁰

من البحر إلى أغمات

خرج المعتمد من الأندلس أسيراً. يذكر المراكشي نزوله بطنجة، ثم مقامه بمكاسة، ثم نقله إلى أغمات حيث أقام إلى وفاته. وبين خبر

260 المراكشي، المعجب، «نكبة بني عباد»، خبر الكتابة إلى المعتد والراضي ومصيرهما. الشاهد.

المغادرة وخبر الوفاة تظهر حياة لا تختزل في سقوط التاج: أهل
يسافرون مع الأسير، وشعراء يلقونه، ومال يضيق بعد السعة.²⁶¹

وفي أخبار أغمات أن بعض بناته اضطرت إلى الغزل بالأجرة.
يذكر المراكشي ذلك، ويورده ابن الأثير في سياق نقد شديد
ليوسف. أصل الضيق خبر ترويه المصادر؛ أما العبارات القاسية
التي يحكم بها المؤرخ على نفس السلطان فتبقى حكمه هو، ولا
نعيدها كأنها وصف محايد لا رأي فيه.²⁶²

ليس في الشاهد ما يجيز الجزم بأن التضيق المالي كان رحمة
مستترة أو خوفاً مشروعاً من ثورة جديدة. قد يقترح الباحث
تفسيراً سياسياً، لكن التفسير يحتاج إلى أدلته ولا يقوم بمجرد
رغبتنا في الدفاع عن صاحب السيرة. وكذلك لا تكفي أبيات
الثناء وحدها لتحديد جميع أحوال السجن والنفقة؛ فلكل نص
الوظيفة التي يؤديها والقدر الذي يكشفه.

ومن دلالة هذه المحنة أنها تردنا إلى المعنى الذي بدأنا به: الرجل
الذي شارك في صد ألفونسو انتهى أسيراً في دولة حليفه. وبين
الحالين لا تحتفي إنسانيته، كما لا تحتفي مسؤولياته السياسية.

261 المراكشي، المعجب، خبر انتقال المعتمد إلى طنجة ثم مكاسة وأغمات. النص.

262 المراكشي، المعجب، فقرة «وبلغ من حال المعتمد على الله بأغمات»؛ وابن الأثير، الكامل،
حوادث 484هـ. المعجب، الكامل.

يستطيع القارئ أن ينتقد استعانته بقوة خارجية في طور من أطوار الصراع، وأن يتألم لما أصابه وأصاب أهله، من غير تناقض.

ميزان لا يختار نصف الخبر

عندما يعود المراكشي من تفصيل محنة المعتمد إلى أخبار الدولة،
يثني على ما أظهره المرابطون من الدفاع عن المسلمين وحماية
الثغور. فالمصدر نفسه يجمع الخبر المؤلم والخبر المثني. وهذه المجاورة
أنفع لفهم المرحلة من تحويلها إلى خصومة بين شاعر مظلوم وقائد
لا ملام عليه، أو بين ملك بريء من كل خطأ وفتح لا حسنة
له.²⁶³

اتسع سلطان يوسف بعد سقوط إشبيلية، لكن الاتساع لم يغلق
الحرب في الأندلس. بقيت بلنسية في الشرق ميداناً لمنازعة طويلة،
وبقي بنو هود في موضعهم. وهنا ينتقل السؤال من مصير مملكة
إلى قدرة دولة واسعة على متابعة عدة جبهات، وإلى حدود ما
يمكن أن يحققه النصر إذا لم يكتمل بعده عمل الحماية والإدارة.

263 المراكشي، المعجب، «رجع الحديث عن دولة المرابطين بالأندلس». عبارة المؤلف في عموم
الطاعة لا تحمل على دخول سرقسطة وطليطلة في ملك يوسف. النص.

الفصل الخامس والثلاثون بلنسية والحرب التي طالت

مدينة لا تسير على إيقاع إشبيلية

لم يؤد سقوط إشبيلية إلى حسم أمر بلنسية. ففي أخبار الشرق الأندلسي نتابع مختلف: القادر بن ذي النون، ثم قيام ابن بجاف، ثم استيلاء القمبيطور، ثم عودة المدينة إلى المرابطين. ويذكر ابن الأبار مقتل القادر على يد جعفر بن عبد الله بن بجاف، وانتقال ابن بجاف من القضاء إلى الرئاسة. وهذه البداية تكفي لتبين أن الصراع داخل المدينة سبق لإحكام القائد القشتالي قبضته عليها.²⁶⁴

القادر نفسه كان صاحب طليطلة قبل ذلك. وفي النص الذي نقله شكيب أرسلان من الذخيرة يرد اتصال انتقاله إلى بلنسية بمعاهدته ألفونسو. هذه الرواية تفسر جانباً من اعتماد سلطانه على قوة خارجية، لكنها لا تسوغ وصف كل فرد من أهل المدينة بأنه

264 ابن الأبار، الحلة السرياء، خبر أبي عبد الرحمن بن طاهر، الصفحة الإلكترونية 125؛ يذكر ابن بجاف ومقتل القادر وانتقاله من القضاء إلى الرئاسة. النص.

كان راضياً عنه أو ثائراً عليه؛ فالخبر عن الحاكم لا يغني عن خبر
الرعية.²⁶⁵

وظهر في هذا المجال ردريق، المعروف في المصادر العربية
بالقمبيطور، وفي الاستعمال الإسباني بالسيد. سنقتصر من أخباره
على ما يتصل ببلنسية ومقاومة المرابطين له. فالسيرة هنا سيرة
يوسف، والقدر اللازم من خبر خصمه هو الذي يبين صعوبة
الجهة، ولا يحتاج إلى استطراد في الملاحم أو إلى ادعاء أن
مصادر قوم بأكلهم محايدة أو مختلقة.

الحصار ونهاية ابن محاف

أخذ الحصار المدينة إلى التسليم. يذكر ابن الأبار أن دخول
القمبيطور ببلنسية كان سنة 487هـ، مصححاً سنة 488هـ التي نقلها
عن ابن بسام. وفي نقل المقرئ الذي أورده أرسلان أن مدة
الحصار بلغت عشرين شهراً، وأن الدخول وقع صلحاً في إحدى
الروايات. ثبت الخلاف في موضعه، ولا نحول اختلاف السنة
إلى حرب ثانية لم يذكرها النص.²⁶⁶

265 ابن بسام، الذخيرة، خبر القادر وبلنسية، بنقل شكيب أرسلان في الحلل السندسية، ج3،
فصل «بلنسية»، المقطع الذي يبدأ «قال أبو الحسن». معانية نقل بواسطة، لا مقابلة أصل
الذخيرة. الشاهد.

266 ابن الأبار، الحلة السيرة، الصفحة الإلكترونية 125، تصحيح 487هـ، والمقرئ نقلاً عن ابن
الأبار، كما أورده أرسلان في الحلل السندسية، «بلنسية»، في مدة الحصار ورواية الصلح. الحلة،

انتهى ابن بجاف بعد ذلك إلى القتل حرقاً. يورد ابن بسام، في النص المنقول عنه، خبراً عمن رآه في موضع إحراقه. ويعرض النقل سياق النزاع على ذخائر القادر والعهود التي سبقت النهاية. لا تخفف قسوة العقوبة بإعادة وصفها بطولية عسكرية، ولا يحتاج إثباتها إلى أن نضيف إليها تفاصيل لا يقولها الشاهد.²⁶⁷

ومن لافت ما في كلام ابن بسام أنه، مع شدة عداوته للقمبيطور، يذكر ظفره بقيادة من خصومه وتفوقه عليهم في وقائع. فإدراك قدرة الخصم ليس ثناء على مقصده أو رضا عن فعله. إنه جزء من فهم ما واجهه المرابطون؛ فإن خصماً لا يملك كفاءة لا يفسر وحده طول الحرب وتعاقب المحاولات.²⁶⁸

محاولات لم تنقطع

لا يعرض النص المنقول من الذخيرة الحرب كلها نصراً متصلاً. يصفها بأنها سجال، ويذكر إرسال يوسف الرجال وثناع الجهود حتى كان آخر الأمراء المجهزين إليها أبو محمد مزديلي. وفي هذه

النقل.

267 ابن بسام، الذخيرة، بنقل أرسلان، الحلل السندسية، ج3، «بلنسية»، خبر ابن بجاف، ولا سيما عبارة «حدثني من رآه في ذلك المقام». معانية نص منقول بواسطة الشاهد.

268 ابن بسام، الذخيرة، بنقل أرسلان، الموضع نفسه، وصف ظفر القمبيطور بقيادة من العجم. الشاهد.

العبرة الموجزة اعتراف بأن ما انتهى بالفتح مر قبل ذلك بإقبال وإدبار، وأن النتيجة المتأخرة لا تحو تعثر المحاولات السابقة.²⁶⁹

هذا الوجه من قيادة يوسف أقل حضوراً في الذاكرة من يوم الزلافة. فالزلافة يوم يمكن أن يروى بأبطاله وحركات جيشه، أما متابعة جبهة سنوات فتظهر في الإرسال والإمداد وتعاقب القادة. ولا نملك من النص نظاماً تفصيلياً للجند نستخرجه بغير دليل؛ لكننا نملك أصل المثابة على المهمة، وعدم اعتبار العثرة الأولى نهاية للمحاولة.

ولا ينبغي أن نحول هذه المثابة إلى وصف نفسي نطلقه على كل قراراته. إنها تظهر هنا من فعل معين: استمرار توجيه القوة إلى بلنسية. وفي هذا القدر ما يكفي للتأمل في الفرق بين الشجاعة في الميدان والقدرة على متابعة العمل حين لا تأتي نتيجته سريعاً.

مزدلي ودخول المدينة

ينسب ابن بسام في النص المنقول فتح بلنسية إلى مزدلي في رمضان 495هـ. ويتلو الخبر كتاب لأبي عبد الرحمن بن طاهر يصف ما أصاب المدينة من حريق، وما بقي لها من أرض

269 ابن بسام، الذخيرة، بنقل أرسلان في الحلال السندسية، «بلنسية»: «والحرب هنالك سجال»، ثم تجهيز مزدلي. الشاهد.

وحدات ونهر، ويستشرف عودة عمرانها. فالرسالة لا تقول إن الضرر أصلح كله في لحظة الدخول؛ بل تفرق، بلغة صاحبها، بين الحريق الواقع والأمل في التعافي.²⁷⁰

وفي نقل آخر أورده أرسلان يرد حصار مزدلي سنة 494هـ، وإقامة الحصار سبعة أشهر، ثم مجيء ألفونسو وإخراج من كان بالمدينة وإحراقها. يمكن أن يذكر بدء الحصار في سنة والفتح في التي تليها، لكن لا نصنع من هذا التابع تحديداً دقيقاً لكل يوم أو لكل بناء أصابه الحريق. الخبر يثبت الإحراق والإخلاء في الجملة؛ أما توزيع النار على الجامع والأسواق والقصور، أو تصوير الانسحاب ليلاً، فيحتاج إلى شاهد مستقل.²⁷¹

دخلت بلنسية بذلك في سلطان المرابطين بعد أن ظلت موضع نزاع. ومما يحفظ للحكاية معناها أن نميز بين وصول الجيش وبين استعادة المدينة حياتها. فالأسوار والأرض قد تبقى، والناس يحتاجون إلى الأمن والماء والعمل. وخطاب ابن طاهر، بما فيه من

270 ابن بسام، الذخيرة، بنقل أرسلان في الحلل السندسية، «بلنسية»، خبر مزدلي وتاريخ الفتح في رمضان 495هـ، ثم كتاب ابن طاهر. الشاهد.

271 الحلل السندسية، شكيب أرسلان، ج 3، «بلنسية»، النقل الذي يبدأ «وفي سنة 494 جاز الأمير مزدلي». اقتصر المتن على المنقول دون مشهد الليل أو تعيين المباني. الشاهد.

أمل، يضع أمامنا هذه المسافة بين نهاية الحرب وتمام العافية، دون أن يقدم لنا إحصاءً للبناء أو للأسعار.²⁷²

بنو هود ومسار آخر

وفي الثغر الأعلى أبقى يوسف بني هود. يذكر ابن الأثير استعداد المستعين للحصار ومراسلته يوسف ومهاداته، ثم يروي أن يوسف أوصى علياً عند موته بترك التعرض لبلادهم، وقال: «اتركهم بينك وبين العدو، فإنهم شجعان».²⁷³

هذه الرواية تقدم وجهاً مغايراً لسياسة الضم. فوجود قوة مجاورة تستطيع حماية الثغر قد يكون، في تقدير صاحب القرار، أجدى من إضافتها إلى جبهات الصراع. لكن النص لا يثبت أن المستعين لم يتخالف قط مع قوة مسيحية، ولا يثبت برنامجاً دائماً يرسل بموجبه يوسف المال والسلاح كلها وقع حصار؛ فلا نحمل عليه ما ليس فيه.

وبين بلنسية وسرقسطة نتضح حدود العبارة الشائعة عن «توحيد الأندلس». المقصود اتساع سلطان المرابطين في معظم الممالك

272 كتاب أبي عبد الرحمن بن طاهر في خبر الفتح، ضمن نقل الذخيرة في الحلل السندسية، «بلنسية»؛ وصف للضرر ورجاء للعمران، وليس تقريراً باكتمال الإصلاح. النص.

273 ابن الأثير، الكامل في التاريخ، آخر خبر ضم ممالك الأندلس في حوادث 484هـ، بني هود ووصية يوسف لعلي. رواية مؤرخ متأخر عن الواقعة؛ لم يثبت لها هنا إسناد مستقل. الشاهد.

الإسلامية التي ضموها، لا دخول شبه الجزيرة كلها في حكمهم،
ولا زوال جميع الإمارات في وقت واحد. بقيت جبهات
وعلاقات مختلفة، وكان على يوسف أن يدير هذا الاختلاف وهو
يتابع دولة تمتد على ضفتي البحر.

الفصل السادس والثلاثون حكم على ضفتي البحر

من الظفر إلى المسؤولية

أصبح اتساع الدولة يضع أمام يوسف أعمالاً متزامنة. فالحرب في الأندلس تحتاج إلى رجال وخيل، والمدن التي دخلها جيشه تحتاج إلى تدبير، ومراكش بقيت دار ملكه. ويصف المراكشي استمرار إمداده القادة في الأندلس بالجيوش والتحليل بعد ضم الممالك؛ وهذا شاهد على متابعة الميدان من رأس الدولة، دون أن يكون بين أيدينا جدول إداري كامل بجميع الولايات وصلاحياتها.²⁷⁴

في أخبار إشبيلية يظهر سير بن أبي بكر قائداً للحصار، وفي بلنسية يظهر مزدلي في آخر مراحل الاسترداد. وتكشف الرسائل أن بين القادة والسلطان كتاباً ينقلون الأخبار ويصوغون المخاطبات. هذه وظائف نراها من شواهد معينة؛ أما رسم أربع ولايات ثابتة لكل

274 الذهبي، سير أعلام النبلاء، «صاحب الغرب»، في اتخاذ مراكش دار ملك؛ والمراكشي، المعجب، «رجع الحديث عن دولة المرابطين بالأندلس»، في الإمداد. الترجمة، الإمداد.

واحدة وال معلوم منذ يوم الضم، فليس نتيجة تلزم من تلك الشواهد.²⁷⁵

وحين نقرأ الدولة من هذه الأخبار، نبدأ بالفعل المعلوم: قائد أرسل، ومدينة حوصرت، وكتاب وصل. ثم تتأمل ما يدل عليه ذلك من توزيع العمل. هذا الطريق أقل إغراء من مخطط إداري مكتمل الألوان، لكنه أقرب إلى ما تسمح به المادة؛ كما أنه يبقى القارئ قريباً من أشخاص يديرون أعمالاً حقيقية.

أهل القلم في الدولة

يذكر المراكشي أن أبا بكر بن القصيرة، كاتب المعتمد، كتب ليوسف أيضاً. وفي هذا الانتقال ما يبين أن تغير السلطان لم يقطع كل صلة بين خبرة الأندلس والدولة الجديدة. احتاجت السلطة إلى البيان والكتابة، ووجد الكاتب موضع عمله في سياق سياسي تغير كثيراً عما كان عليه.²⁷⁶

ثم يذكر ابن عبدون، لكنه يقول إنه كتب ليوسف «أو لابنه». وهذه الـ«أو» الصغيرة مهمة؛ إذ تمنع إلحاق كل ما أورده المؤرخ

275 ابن الأثير، الكامل، حوادث 484هـ، في سير وإشبيلية؛ وابن بسام بنقل أرسلان، الحلل السندسية، «بلنسية»، في مزدلي. إشبيلية، بلنسية.

276 المراكشي، المعجب، «أعيان الكاب في دولة المرابطين»، خبر أبي بكر بن القصيرة. النص.

بعد ذلك بعهد الأب. ومن ذلك كتاب فتح شنترين الذي يسمي في صدره علي بن يوسف. لا يصح أن يتحول استرسال القراءة عبر الصفحات إلى نقل أعمال الابن إلى سيرة أبيه.²⁷⁷

ليس الكاتب في هذه الأخبار زخرفاً يضاف إلى مجلس السلطان. فالخبر الذي يصل يحتاج إلى ضبط اسم المكان والقائد والوقت، والقرار الذي يخرج يحتاج إلى لفظ يفهمه من يتلقاه. وفي مشهد قراءة الرسالة على يوسف بلسانه، الذي رواه ابن خلكان، تظهر الوساطة بين قصد الحاكم وصياغة كاتبه. وسواء كثر ما نعرفه عن تعليم يوسف أو قل، فهذا فعل محدد في إدارة الاتصال لا ينبغي أن يضيع خلف الحكم المجمل على ثقافته.²⁷⁸

القضاة وحدود الخبر العام

يروى ابن أبي زرع أن يوسف رد أحكام البلاد إلى القضاة، وأنه كان يقرب الفقهاء والعلماء ويصدر عن رأيهم ويجري عليهم الأرزاق. هذا وصف عام لسياسة منسوبة إليه، وهو كاف لإثبات حضور القضاة والعلم في الصورة التي حفظها المصدر؛ لكنه لا

277 المراكشي، المعجب، «وزارة ابن عبدون»، عبارة «له، أو لابنه»، ثم كتاب فتح شنترين إلى أبي الحسن علي بن يوسف. الشاهد.

278 ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج 7 ص 115، قراءة الكاتب الرسالة على يوسف بلسانه. النص.

يثبت لائحة تجعل كل حبس أو صلح أو تصرف للوالي موقوفاً
على مجلس واحد بقرطبة أو إشبيلية.²⁷⁹

والفرق هنا بين اتجاه للحكم وإجراء محدد. قد يجب السلطان العلماء
وليستشيرهم، ثم نحتاج، في واقعة بعينها، إلى خبر يبين من استشار
وما الذي أشار به. وقد يعهد بالأحكام إلى القاضي، ولا يلزم من
ذلك أن القاضي يمارس كل وظائف الإدارة والجيش. احترام
العلم يبدأ أيضاً باحترام حدود العبارة التي ينقلها المصدر.

ويزداد السؤال أهمية بعد أخبار إشبيلية. فوجود القضاء لا يعفينا
من النظر في الظلم الذي ترويه المصادر، كما أن وقوع تجاوز لا
يبيح لنا إنكار جميع أعمال الإصلاح. الدولة عمل بشري تتداخل
فيه الأوامر والتنفيذ، وتختلف فيه القدرة على المتابعة. ومن ثم
تكون مسؤولية السلطان موضع فحص مستمر، لا لقباً يمنح مرة
واحدة ثم يغني عن بقية الوقائع.

المال ومعاش الناس

يصف ابن أبي زرع موارد يوسف بأنها مقصورة على الزكاة
والعشر وجزية أهل الذمة وأحماس الغنائم، وينفي المكوس

279 ابن أبي زرع، روض القرطاس، نسخة 1917، ص 88 المطبوعة، صفحة الملف 89؛ رد
الأحكام إلى القضاة وتقريب الفقهاء. معانية التفريغ الإلكتروني، دون مقابلة صورة المطبوع.
النص.

والمعونات في بلاده. نورد هذا باعتباره وصف المؤرخ لسياسته المالية. أما مقدار الأموال التي يجمعها الخبر في الخزانة بعد الوفاة فمسألة أخرى، ولا نستخرج من الشاء العام على الجباية حساباً اقتصادياً لم تتوافر دفاتره.²⁸⁰

ومن الممكن أن يفهم القارئ أثر تخفيف الجباية في حياة الناس من حيث المبدأ؛ فالمال الذي يؤخذ منهم يمس زرعهم وتجارتهم وقدرتهم على الاستمرار. لكن هذا تحليل للصلة بين الضريبة والمعاش، وليس شاهداً على أن الأسعار هبطت هبوطاً هائلاً في جميع الأندلس، أو أن كل وقف امتلأت خزائنه، أو أن ضريبة كل طريق ألغيت في وقت واحد. لذلك لا تنسب هذه النتائج التفصيلية إلى يوسف بغير دليل خاص.²⁸¹

ويجمع حكم العدوتين فرصاً وأعباء. فالجهة التي تطلب النجدة يمكن أن تصلها قوة من وراء البحر، لكن إرسال القوة نفسه يحتاج إلى مراكب ومؤن ومتابعة. وما يثبتته المراكشي هو نتائج الإمداد؛ أما

280 ابن أبي زرع، روض القرطاس، نسخة 1917، ص 88، صفحة الملف 89، وصف الجباية. الرواية عامة متأخرة، ولا تعني توافر حسابات مالية مستقلة لكل إقليم. النص.

281 تمييز تحريري بين السياسة والنتيجة؛ الشاهد المنقول في روض القرطاس يصف الجباية ولا يقدم أرقاماً للأسعار أو خزائن الأوقاف. موضع الوصف.

دورة سنوية ثابتة تبدل كل كتيبة في موعد معلوم، أو حصون أعيد بناؤها على قائمة شاملة، فلا يثبتها هذا النص.²⁸²

المعنى الذي بقي

يجلو هذا القدر من الأخبار جانباً من أثر يوسف: أنه جمع تحت سلطانه أقاليم على ضفتي البحر، وربط الحرب فيها بقرار وإمداد يتجاوزان حدود الإمارة الأندلسية المنفردة. غير أن ثمرات ذلك لا تقاس بادعاء أنه ضمن وحده بقاء الأندلس عدداً معيناً من القرون؛ فالأجيال التي جاءت بعده لها أعمالها وقراراتها وشروط زمانها.

الأقرب إلى السيرة أن نقف عند ما قام به في عهده، ثم نرى ما تركه لمن بعده من قوة ومسؤولية ومشكلات. والسلطان الذي اتسع عمله احتاج أيضاً إلى اسم يعرف به، وإلى صلة بالخلافة، وإلى ترتيب لما بعد رحيله. وهنا ننتقل من تدبير الجهات إلى المعنى الذي حمله لقب «أمير المسلمين»، وما كشفته أخبار الخلع وانتقال العهد.

282 المراكشي، المعجب، «رجع الحديث عن دولة المرابطين بالأندلس»، استمرار الإمداد بالجيش والخيول؛ دون نص على دورة سنوية ثابتة. الشاهد.

الفصل السابع والثلاثون أمير المسلمين

حين يتسع سلطان رجل، يصبح الاسم الذي يخاطبه به الناس جزءاً من موقعه بينهم. واشتهر يوسف بلقب «أمير المسلمين»، وهو اللقب الذي يثبته الذهبي في ترجمته ويصل به خبر الخطبة لبني العباس.²⁸³ لقد حكم يوسف في المغرب والأندلس، وأظهر في الوقت نفسه رابطة بخلافة بعيدة مقرها بغداد.

يربط ابن أبي زرع إظهار اللقب بما أعقب الزلافة، ويقول إنه لم يكن يدعى به من قبل.²⁸⁴ وهذه رواية في توقيت الإعلان، لا دليل منفرد على نشوء اللقب في التاريخ كله. وتعين دراسة الرسائل والقطع النقدية المؤرخة على اختبار مثل هذا التوقيت؛ فالألقاب قد تظهر في الوثيقة قبل أن يلتفت إليها صاحب الترجمة، وقد يروي المؤرخ لحظة اشتهاها كأنها لحظة ابتدائها.

283 الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج19، ترجمة صاحب الغرب، موضع ص253-254 بحسب علامات النص الإلكتروني: لقب أمير المسلمين، والخطبة للعباسيين، ووصول الخلع من المستظهر. الترجمة المباشرة.

284 ابن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس، نسخة1917، ص88 المطبوعة/صفحة الملف89. يربط المؤلف اللقب بالزلافة، ويصف المكاتبات والنقد. عرض رأي المؤلف منسوباً إليه، ولم يحسم تاريخ اللقب باستقصاء مسكوكات أو وثائق. موضع الشاهد.

ويسوق ابن أبي زرع وصف نقد يحمل اسم يوسف ولقبه، ويذكر الإمام العباسي في الجهة الأخرى.²⁸⁵ تجتمع بذلك الخطبة والسكة في صورة الحكم كما أعلن نفسه: اسم الأمير حاضر، ورابطة الخلافة معلنة. وهذه العلامات تخاطب الناس في مواضع متكررة من حياتهم، على المنبر وفي المعاملة بالنقد، فلا تبقى الصلة السياسية حديث وفد واحد يعود من سفره.

ليس اللقب سيرة صاحبه. فهو يعبر عما يعلنه الحكم من موقع ومشروعية، أما تقويم الأعمال فيحتاج إلى أخبارها. وقد رأينا يوسف في التأسيس والحرب، ثم في ضم الممالك وتديرها؛ وتأتي تسمية «أمير المسلمين» لتدخل تلك الأعمال في إطار أوسع من رئاسة قبيلة أو إمارة مدينة. كان اللقب يسع اتساع المسؤولية التي حملها، وتبقى حقيقة الوفاء بتلك المسؤولية في أفعال صاحبها وحقوق المحكومين.

285 ابن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس، نسخة 1917، ص 88 المطبوعة/صفحة الملف 89. وصف عام للنقش في مصدر نصي؛ ليس شهادة بفحص كل المسكوكات أو بصحة جميع تفاصيل تاريخ الضرب. موضع الشاهد.

الفصل الثامن والثلاثون الصلة ببغداد

لم يكن بُعد الطريق بين مراکش وبغداد مانعاً من حضور اسم الخلافة في سلطان يوسف. يذكر ابن خلكان أنه كان يخاطب لبني العباس، ويذكر الذهبي وصول خلع المستظهر إليه.²⁸⁶ والخلع ثياب تشريف يبعث بها صاحب السلطان إلى من يريد إظهار تكريمه أو تقليده؛ فهي علامة سياسية، وليست انتقالاً لجيش عباسي إلى المغرب.

وتصل أخبار هذه الرابطة برحلة عبد الله بن العربي وولده أبي بكر إلى المشرق. يعرض محمد عبد الله عنان نصوصاً تتعلق باتصالهما بالغزالي وبطلب التأييد ليوسف، ثم يذكر عودة أبي بكر إلى الأندلس سنة 493هـ بعد وفاة أبيه، حاملاً رسالتى الغزالي والطروطشي والمرسوم الخلافي.²⁸⁷ وسبق أن رأينا أهمية الزمن هنا: كان ضم الطوائف قد بدأ قبل هذه المراسلات، فلا نجعل وصولها بداية عمل سبقها بسنوات.

286 ابن خلكان، وفيات الأعيان، 7/125؛ والذهبي، سير أعلام النبلاء، «صاحب الغرب»، في الخطبة للعباسيين ووصول خلع المستظهر. الوفيات، السيرة.

287 محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، 44-3/41، عرض نصوص رحلة ابن العربي والفتوى والرسائل. الاعتماد هنا على نقله المنشور، لا على مقابلة مخطوط الكنائية. ص41، ص44.

تكشف هذه الصلة سعيًا إلى وصل واقع القوة باعتراف أوسع. فالمرابطون يملكون الجند والبلاد، والخلافة تمنحهم رابطة معلنة داخل العالم الإسلامي الذي ينتسبون إليه. والفقهاء يبينون، بحسب الوقائع التي نقلها إليهم أصحاب السفارة، وجه الطاعة وحدودها. لا يتطابق دور الأمير والكاتب والفقهاء والخليفة، وإن اجتمعت أدوارهم في وثيقة واحدة.

وتحمل الرسائل أثر الطريق الذي جاءت منه الأخبار. فابن العربي يشرح أحوال الأندلس من موقفه ومعرفته، والغزالي يحيب عما بلغه؛ لذلك لا نستخرج من التأيد العام شهادة مستقلة على كل حادثة جرت في إشبيلية أو غرناطة. تبقى للوقائع رواياتها، وللكتاب السياسي غرضه، وللفتوى شروطها.

بهذا تظهر بغداد في سيرة يوسف في موضعها: مرجعاً رمزياً وفقهياً طلب الاتصال به، وشريكاً في إعلان المشروعية، بينما بقي عبء الإدارة والحرب في يد السلطة القائمة على ضفتي البحر. ولم يعف وصول التشريف صاحبه من مسؤولية العدل، كما لم يكن غياب الخليفة عن الميدان مانعاً من أن يحمل اسمه معنى في خطاب الدولة.

الفصل التاسع والثلاثون قليل المؤونة في سعة الملك

وصف ابن أبي زرع يوسف بأنه يلبس الصوف، وأن مأكله الشعير ولحوم الإبل وألبانها، مع اتساع ما صار في يده من الملك.²⁸⁸ إنه وصف لعادة ظاهرة في اللباس والطعام، يقرب إلينا جانباً من صلته بما نشأ عليه قومه، وبما كان يستطيع تغييره حين اتسعت قدرته.

تنبع دلالة الخبر من اجتماع القدرة والاقتصاد في المؤونة. فالتقليل الذي تفرضه قلة الموارد يختلف عن تقليل يبقى مع إمكان الزيادة. ومع ذلك لا يجعل النص كل يوم من أيامه معلوماً، ولا يفتح لنا باب خلوته. نعرف ما وصفه المؤرخ، ونقرأ معنى الاختيار في حدوده.

ونتصل بهذا الوصف واقعة أبين أثراً في التعامل مع المال: ترك غنائم الزلافة للملوك الأندلس في رواية ابن خلكان.²⁸⁹ هنا لا يتعلق الأمر بمطعمه، بل بمال صار تحت قدرته بعد الحرب. اختار أن

288 ابن أبي زرع، روض القرطاس، طبعة 1917، ص 87، وصف اللباس والمأكل؛ وهو وصف عام يرويه المؤلف، لا يسجل يومي للحياة الخاصة. النص.

289 ابن خلكان، وفيات الأعيان، 7/117، خبر الغنائم بعد الزلافة. النص.

ينصرف عنه إلى غرض الحملة، وترك للحلفاء نصيباً من ثمرة انتصار
شاركوا فيه.

وليس من لازم قلة المؤونة أن تكون الدولة قليلة النفقة؛ فالجيش
يحتاج إلى مال، والحصون إلى رجال وسلاح، والمدن إلى مرافق.
وإنما يظهر الفرق بين ما يأخذه الحاكم لنفسه وما يتطلبه العمل
الذي يحمله. وحين نقرأ الاقتصاد الشخصي مع أخبار الإمداد
المتتابع للأندلس، نرى سلطاناً لا تختصر صورته في مائدته.

قد يغري خبر كهذا بتصور حياة لا يعرف صاحبها رغبة ولا
تردداً، لكن فضيلة الإنسان لا تحتاج إلى هذا الادعاء. يكفي أن
تبقى عادته بعيدة عن الترف، وأن يملك في موقف ظاهر قدرة على
ترك المال. ومن هنا يأخذ القارئ معنى قريباً من حياته: أن ازدياد
الموارد لا يوجب أن تزداد حاجات النفس معها بلا حد، وأن
للقدرة أبواباً أوسع من الاستهلاك.

الفصل الأربعون الحلم وما لا يحويه الشاء

ينقل ابن خلكان عن ابن الأثير وصف يوسف بحجة العفو والصفح عن الذنوب العظام.²⁹⁰ ولم يكتف صاحب الخبر بالصفة، بل أتبعها بحكاية ثلاثة رجال تمنوا: أحدهم مالاً يتجر به، والآخر عملاً عند الأمير، والثالث زوجته. فلما بلغه كلامهم أعطى الأول مالاً، واستعمل الثاني، وأنكر على الثالث ما تمناه، ثم أرسله إلى المرأة، وانتهت الحكاية بإطلاقه وإعطائه مالاً وكسوة.²⁹¹

يسوق المؤرخ هذا الخبر مثلاً على الحلم. وهو خبر له بنية الحكايات التي تحفظ جواب صاحب السلطة عن تجاوز بلغ سمعه؛ فلا يصح أن نجعل كل جزئية فيه صورة متكررة من الحياة اليومية. لكن موضع اختياره واضح: القدرة على العقاب لم تنته إلى الانتقام الذي قد يتوقعه السامع.

وللحلم عند صاحب الأمر كلفة خاصة؛ فكلته تنفذ، وغضبه قد يجد من يسبق إلى إرضائه. لذلك يكون كف العقوبة، حيث يصح

290 ابن خلكان، وفيات الأعيان، 7/125، نقلاً عن ابن الأثير. النص.

291 ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج 7، حكاية أصحاب الأمنيات الثلاث. النص في هذا الموضع لا يسمي الزوجة، فلا يجوز هنا بأنها زينب. الشاهد.

العفو، عملاً له أثر يتجاوز صاحب الإساءة. إنه يضبط ما تستطيع السلطة أن تفعله لمجرد أن صاحبها انزعج أو جرحه قول.

غير أن هذا الشئ لا يطوي أخبار الشدة. فبين حكاية فرد تجاوز في كلامه وبين معاملة خصم فقد ملكه فرق في الحال والتبعات. وقد بقيت محنة المعتمد موضع نقد عند من أثنى على يوسف في أبواب أخرى. لا نرفع الحكاية الأولى لتجيب عن جميع أسئلة الثانية، ولا نحذف الأولى لأن الثانية مؤلمة.

من هذا التوازن تظهر فضيلة يمكن فهمها والانتفاع بها: أن يتسع صدر القادر لبعض ما يسمع، وأن ينظر في عاقبة غضبه قبل أن يحوله إلى أمر. وتبقى السيرة أوسع من الصفة الواحدة؛ فيها عفو يروى، وحروب تخاض، وقرارات يحاسب التاريخ أصحابها على آثارها.

الفصل الحادي والأربعون الشجاعة والعمل مع الرجال

خرج يوسف إلى المسؤولية وهو في مقدمة جيش أبي بكر بن عمر، ثم صار صاحب القيادة التي تتوزع عنها الجيوش. وبين البداية واتساع الملك بقيت الشجاعة من الأوصاف التي يذكرها المؤرخون له؛ يصفه ابن أبي زرع بالحزم والشجاعة وتفقد الرعية والثغور.²⁹²

وتعطي الزلاقة لهذه الصفة موضعاً عملياً. ففي رواية ابن أبي زرع وصلت الأخبار عن ثبات داود بن عائشة والمعتمد تحت ضغط القتال، فأرسل يوسف نجدة إليهما، ثم اتجه بقوة معه إلى معسكر ألفونسو.²⁹³ لم يكن حضور القائد أن يقف في كل موضع بنفسه؛ كان أن يعرف أين يعمل رجاله، وأين يضع ما بقي معه من قوة.

لهذا لا تلغي شجاعته أدوارهم. كان ثبات المقدمة شرطاً في بقاء مجال الحركة، وكانت النجدة عملاً حمله قائد آخر، وكان صمود المعتمد جزءاً من تحول المعركة. يزداد أثر يوسف وضوحاً حين

292 ابن أبي زرع، روض القرطاس، طبعة 1917، ص 87-88، وصف يوسف. النص.

293 ابن أبي زرع، روض القرطاس، طبعة 1917، ص 95، تحرك سير بن أبي بكر ووجهة يوسف إلى محلة ألفونسو. تفاصيل المعركة هنا بحسب هذه الرواية. النص.

نرى كيف اتصلت هذه الأدوار بقراره، بدل أن نجمع أعمال الجيش كلها في اسم واحد.

وفي بناء مسجد مراکش يروي ابن أبي زرع أنه عمل بيده في الطين والبناء مع العاملين.²⁹⁴ يتغير ميدان الفعل هنا، وتبقى المشاركة ظاهرة. ليس في الخبر أن الأمير استغنى عن الصنّاع أو صار أعلم منهم بالصنعة؛ بل إنه أخذ نصيباً من العمل، وهو الذي يستطيع أن يكتفي بالأمر.

تلتقي الصورتان في مسؤولية لا تنفصل عن كلفتها. فالقائد يحتاج إلى أن يرسل رجالاً حيث لا يستطيع أن يكون، ويحتاج كذلك إلى أن يتحمل ما يخصه من القرار والعمل. وقد رأينا يوسف في الحاليتين: يوزع القيادة، ويتقدم حين يتعلق الأمر باختياره وحضوره. وهذا مما يبقى من السيرة قريباً إلى الفهم، من غير حاجة إلى خطبة متخيلة أو بطولة تحو من حول صاحبها.

294 ابن أبي زرع، روض القرطاس، طبعة 1917، ص 89، مشاركة يوسف في بناء المسجد.
النص.

الفصل الثاني والأربعون أواخر العمر وانتقال العهد

لم يكن اتساع الملك نهاية ما يحتاج يوسف إلى تدبيره. فقد جاء وقت ينظر فيه إلى بقاء الدولة بعده، وإلى الرجل الذي يحمل أعمالاً لم تعد تختص بالمغرب وحده. واختار ابنه أبا الحسن علياً لولاية العهد، مع وجود أخيه تميم الأكبر سنّاً.²⁹⁵

يحفظ كتاب «الحلل الموشية» نص عهد كتبه الوزير أبو محمد بن عبد الغفور باسم يوسف. يجعل النص أمر الرعية أمانة يُسأل صاحبها عن تركها، ويذكر اختيار علي بعد مشاورة أهل الرأي. ثم يصف إحضاره، واشتراط الشروط عليه، وقبوله ما عرض عليه. إنها لغة وثيقة تعلن أسباب الاختيار وتطلب إقرار الناس به؛ فلا نقرأها كما نقرأ شهادة محايدة عن كل موقف جرى في المجلس.²⁹⁶

ويحمل آخر النص تاريخ سنة 495هـ، مع اضطراب في سياق الرواية الذي يذكر سنة 496هـ أيضاً. وتذكر أخبار الجواز الرابع

295 محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، 3/45؛ والحلل الموشية، ص 77-80. عنان، الحلل.

296 الحلل الموشية، طبعة دار الرشاد، ص 78-80، نص العهد الذي نسب تأليفه إلى أبي محمد بن عبد الغفور؛ وقول المقطع بنقله في عنان، 3/45-46. الحلل، تمة النص.

عبور يوسف سنة 496هـ للنظر في مصالح الأندلس، وصلته بتثبيت عهد ابنه. لذلك يصح أن نرى ترتيباً امتد خلال أواخر حياته، دون أن نضغط جميع إجراءاته في يوم واحد.²⁹⁷

كان العهد محاولة لضبط انتقال المسؤولية قبل وقوع الوفاة. فالمدن والولاة والجيوش تحتاج إلى أن تعرف من ترجع إليه، وأهل البيت والقبائل يحتاجون إلى بيان الاختيار. ولا تخبرنا صياغة الوثيقة وحدها بدرجة الرضا في كل موضع، لكنها تثبت أن المسألة خرجت من رغبة داخل البيت إلى إعلان ذي شروط وشهادة.

وتروي «الحلل» أن من شروط العهد توزيع جيش من سبعة عشر ألف فارس على مدن الأندلس وثغورها؛ فتذكر سبعة آلاف لإشبيلية، وألفاً لقرطبة، وألفاً لغرناطة، وأربعة آلاف للشرق، والبقية للثغور.²⁹⁸ هذه أعداد في رواية برنامج للتوزيع، لا كشف حضور يثبت تنفيذ كل جزء منه. ودلالاتها الأوضح أن الدفاع

297 الحلل الموشية، ص 77-80: الجواز الرابع في سنة 496هـ، وخاتمة العهد مؤرخة بسنة 495هـ. وفي ص 78 صحح المحققان «خمس» إلى «ست» اعتماداً على السياق والقرطاس، مع تنبيههما إلى اضطراب الأصول. يبقى اختلاف التسلسل ظاهراً، فلا تثبت به مراسم مفصلة في تاريخ واحد. الشاهد.

298 الحلل الموشية، ص 80، تعداد القوات المشترط ترتيبها بالأندلس. هذه رواية خطية، ولا تستقل بإثبات تمام التنفيذ. النص.

المتصل صار من صميم ما يتركه الأب لابن، بعد أن بدأت صلته بالأندلس بحملة نجدة عابرة.

وتختصر الوصية ببني هود جانباً آخر من ميراثه السياسي. يروي ابن الأثير أنه أوصى علياً بترك التعرض لهم، وقال: «اتركهم بينك وبين العدو، فإنهم شجعان».²⁹⁹ فالغاية هنا تتجاوز جمع كل مدينة تحت يده؛ ثمة قوة محلية رأى في بقائها فائدة للشعر. وهي وصية تنسجم مع استمرار استقلال بني هود في عهده، وتبين أن حساب السلطة كان يتسع للمهادنة كما يتسع للضم.

ثم آلت الإمارة إلى علي بعد وفاة أبيه، كما يذكر المراكشي والذهبي.³⁰⁰ بقي البحر في طريق الدولة، وبقيت الثغور تحتاج إلى الرجال، وبقيت العلاقة بين العلماء والحكم. انتقل الاسم والملك، أما نتائج ما ورثه الابن وما اختاره لنفسه فتنتمي إلى مرحلة أخرى؛ لا نضعها كلها في حساب الأب، ولا نفصلها عن البناء الذي تلقاه عنه.

299 ابن الأثير، الكامل، حوادث 484هـ، خاتمة خبر ضم بلاد الأندلس، يذكر الوصية عند الحديث عن بني هود. النص.

300 عبد الواحد المراكشي، المعجب، «ولاية أبي الحسن علي بن يوسف بن تاشفين»، والذهبي، سير أعلام النبلاء، «صاحب الغرب»، المعجب، السير.

الفصل الثالث والأربعون انقضاء الحياة وبقاء العمل

انتهت حياة يوسف في أول سنة 500هـ. ويعين ابن خلكان اليوم بأنه الاثنين لثلاث خلون من المحرم، ويقول إنه عاش تسعين سنة.³⁰¹ أما الذهبي فيذكر بضعاً وثمانين، ويجعل ابن أبي زرع عمره مائة؛ فلا نستطيع أن نختار سناً ثم نرويها على أنها موضع اتفاق.³⁰²

وتذكر «الحلل الموشية» وفاته بمراكش ودفنه بقصره، وحضور ابنه تميم وعلي، مع من حضر من أسرته.³⁰³ هذه آخر صورة تجمعها بأهل بيته في هذا الخبر. ولا يلزمها أن نضيف كلاماً عند الاحتضار أو وصفاً للصمت والدموع حتى يظهر ثقلها؛ فالذي عبرت جيوشه البلاد صار أمره إلى ابنه، وبقي الناس أمام بداية عهد جديد.

301 ابن خلكان، وفيات الأعيان، 7/125. النص.

302 الذهبي، سير أعلام النبلاء، «صاحب الغرب»، وابن أبي زرع، روض القرطاس، طبعة 1917، ص 88. الذهبي، ابن أبي زرع.

303 الحلل الموشية، طبعة دار الرشاد، ص 83. ينص المتن على مستهل المحرم سنة 500هـ؛ ويثبت المحققان في الحاشية أن إحدى النسخ تقرأ «ربيع الأول»؛ لا يثبت هذا الاختلاف وصفاً تفصيلاً لمراسم الوفاة. النص.

كان ابن خلكان قد وصف بقاءه على عزه وسلطانه إلى الوفاة، ثم نقل شهادة ابن الأثير في حسن سيرته وصلته بالعلماء وميله إلى العفو.³⁰⁴ ويعرض هذا الاختيار خلاصة المؤرخ عن الرجل، بعد أن فرغ من أخبار وقائعه. لم يترك لنا سجلاً يومياً لكل سنة من عمره، ولكنه حفظ أعمالاً جعلت اسمه حاضراً في تاريخ المغرب والأندلس.

وحين نقف عند الوفاة نرى مقدار ما تغير منذ أول ظهور يوسف في مقدمة جيش أبي بكر. نشأت مراکش وصارت دار ملك، وتبدلت سلطات مدن واسعة، وعبر البحر أكثر من مرة، وسقطت ممالك كانت تستنجد به، واستقرت للأندلس صلة بسلطان المغرب أشد مما كانت عليه قبل مجيئه. هذا الاتساع هو الذي يجعل خبر موته نهاية مرحلة، وإن لم تكن نهاية الدولة أو الحرب.

ولا يختزل الموت حياة صاحبه في ثناء أخير. تبقى وقائع النصر والبناء، وأسئلة الدم والأسر والمال، وشهادات المحبة والنقد. ومن الوفاء بالسيرة أن تفهم أعماله وتوزن، وأن تصحب الرحمة به عدالة مع من عاشوا في سلطانه.

304 ابن خلكان، وفيات الأعيان، 7/125. النص.

الفصل الرابع والأربعون ما بقي من أثره

يمكن أن نبدأ قياس أثر يوسف من شيء نعرف أنه تغير في حياته: أصبحت مراکش مركزاً للملك، واتصل قسم كبير من المغرب بسلطة واحدة، ثم دخلت ممالك أندلسية في هذه السلطة. وفي الزلافة انكسر جيش ألفونسو السادس، وتغير مجال المبادرة في الحرب. هذه أعمال ظاهرة، لكل منها أخبار وتبعات تتجاوز صاحبها.

ومن الخطأ أن نحولها إلى رقم اقتراضي نجزم به، كأن نقول إن معركة واحدة منحت الأندلس عدداً معلوماً من القرون. فقد تابعت بعد يوسف دول وحروب وصلح ونزاعات، واشترك في بقاء المدن وسقوطها رجال وأسباب كثيرة. نستطيع أن نبين خطراً دفعه، وقوة جمعها، ومرحلة فتحها؛ أما التاريخ الذي كان سيقع لو غاب فلا نملكه خبراً مشهوداً.

ويظهر أثره في نوع الصلة بين العدوتين. لم يعد الجند القادم من المغرب ضيفاً يعود بعد الموقعة وحدها؛ صار للغور إمداد متصل، وللقادة أعمال، وللكتاب والمشاورين الأندلسيين حضور في دولة

تتخذ مراکش مركزاً. وصارت رحلة البحر جزءاً من إدارة حكم،
بعد أن كانت في بدايات القصة طريق استغاثة ونجدة.³⁰⁵

وهذا البناء حمل معه كلفة الضم: نهايات أسر حاكمية، وأسرًا ونفياً،
ومقاومة ودماء. إن وحدة السلطان وصف سياسي، وليست حكماً
مسبقاً بأن كل ما أنشأها كان عدلاً. وقد حفظ هذا الكتاب فضل
النجدة ومحنة المعتمد معاً؛ لأن سقوط أحدهما من النظر يغير معنى
الآخر.

ومن العدل كذلك أن نميز عهده مما وقع بعده. نخب إحقاق
«إحياء علوم الدين» الذي يؤرخ بأول سنة 503 هـ يقع في عهد
ابنه علي، بعد وفاة يوسف سنة 500 هـ.³⁰⁶ لا يصح أن يحمل
الأب أمراً لم يكن حياً عند وقوعه. ولا يعني هذا أن تاريخ الفقهاء
والسلطة يبدأ من جديد عند كل وفاة؛ إنما يعني أن تعيين المسؤول
عن القرار يسبق تفسير جذوره.

ترك يوسف دولة استطاع خلفه أن يرث أدواتها ومواقعها
ورجالها، وترك اسماً ارتبط بالقوة وقلة الترف وإجلال العلم. وترك

305 المراكشي، المعجب، «فصل رجع الحديث عن دولة المرابطين بالأندلس»، في الإمداد
وتوافد أهل العلم والكتاب؛ والحلل الموشية، ص 80، خبر ترتيب القوات. المعجب، الحلل.
306 ابن القطان، خبر إحقاق الإحياء في أول سنة 503 هـ في عهد علي بن يوسف، منقول بنصه
في دراسة تعرض المصدر: الشاهد. نوع المعاينة: نقل ثانوي مباشر عن ابن القطان؛ لم تعين صورة
الأصل.

كذلك قرارات تستدعي النقد. وتلتقي هذه الوجوه في أثر رجل كبير، لا في صورة مكتملة خارج طبائع البشر. كلما بقيت السيرة قادرة على حمل هذا التعدد، كانت أصلح لتعليم من يطلب أثراً في حياته.

الفصل الخامس والأربعون الأقوال والوصايا المأثورة

ليس الذي بقي من كلام يوسف مجموعة حكم قصيرة فحسب. فيه جواب عن جند اجتمعوا له، وكلمة في النجدة، وحديث مع حليف، ورسائل تصدر باسمه، وعهد يتصل بما سيأتي بعد وفاته. تعود هذه النصوص إلى المواطن التي رأيناها في السيرة؛ فتسمع الرجل في موضع الفعل، وتعرف القضية التي قيل الكلام من أجلها.

جمعت هنا تسع عشرة وحدة من الأقوال والمكاتبات والوصايا المروية، مرتبة بحسب موضوعها. بقيت الرسالة والحديث المتصل وحدة واحدة، وميز النقل الحرفي من عرض المعنى، وكلام يوسف من إنشاء كاتبه. تختلف طرق الأخبار في قربها واتصالها؛ لذلك أبقى القيد الذي يغير فهم النص، وجعل تفصيله في الحاشية. أما أقوال المؤرخين فيه فلها الفصل التالي.

في القيادة والنجدة

١ عندما سئل عن جنده. في خبر عودة أبي بكر بن عمر، يروي ابن أبي زرع أن يوسف أجاب عن سؤال يتعلق بما اجتمع له من

الجيش: «أستعين بها على من خالفني». الكلمة جزء من لقاء يتعلق بانتقال السلطان، وتبقى في سياق تلك الرواية.³⁰⁷

٢ عندما طلب المعتمد المدد. ينسب المراكشي إلى يوسف قوله: «أنا أول منتدب لنصرة هذا الدين، ولا يتولى هذا الأمر أحد إلا أنا بنفسى!».³⁰⁸

٣ في جواب المعتمد بالتأهب. وفي رواية ابن أبي زرع لاستنجد المعتمد به، يرد جواب آخر: «ارجع الى بلدك وخذ في أمرك». ثم يذكر على لسانه وعداً بالقدوم في إثره. عرضت الجملة التالية بالمعنى لاضطراب كلمة في التفريغ الإلكتروني؛ ولم يجمع هذا الخبر وخبر المراكشي في حوار واحد، إذ تختلف الروايتان في موضع اللقاء وتسلسل السفر.³⁰⁹

٤ في وجهته بعد الوصول. وفي رواية المراكشي أن المعتمد دعاه إلى إشبيلية ليستريح، فقال: «إنما جئت ناوياً جهاد العدو، فحيثما

307 ابن أبي زرع، الأئيس المطرب بروض القرطاس، نسخة 1917، ص 86 المطبوعة/صفحة الملف 87. الجواب القصير موجود بهذا اللفظ في التفريغ المعائن. نسبة الرواية إلى ابن أبي زرع ظاهرة، لم تقابل صورة الصفحة، ولم يستقص طريق الخبر. موضع الشاهد.

308 المراكشي، المعجب، خبر استنجد المعتمد بيوسف سنة 479هـ، عبارة «أنا أول منتدب». الموضع.

309 ابن أبي زرع، روض القرطاس، طبعة 1917، ص 93 المطبوعة، خبر لقاء المعتمد بيوسف ببلاد طنجة. الجملة القصيرة مطابقة للتفريغ؛ تمت الوعد بالقدوم عرضت بالمعنى لاضطراب كلمة فيه. النص.

كان العدو توجهت وجهه». يختلط ترتيب بعض الحملات في سياق المؤلف، فلا يستخرج من هذه الكلمة وحدها جدول الرحلة.³¹⁰

٥ دعاء العبور. يروي ابن أبي زرع أنه سأل الله تيسير الجواز إن كان فيه خير للمسلمين، وأن يعسر عليه إن كان خلاف ذلك حتى لا يعبر. هذا نقل للمعنى، وليس اقتباساً حرفياً للدعاء.³¹¹

٦ عند استعراض الجند. يروي المراكشي أنه، بعدما استعرض جنده على حصن الرقة، قال للمعتمد: «هلم ما جئنا له من الجهاد وقصد العدو». ويورد في السياق نفسه قوله عن الجزيرة: «كان أمر هذه الجزيرة عندنا عظيماً قبل أن نراها، فلما رأيناها وقعت دون الوصف!». هذه وحدة حديث عن الاستعداد والمقام في الأندلس، وليست حكمة مجردة في الزهد؛ فالمؤرخ يفسر التقليل من شأن الجزيرة تفسيراً سياسياً، ويذكر في موضع آخر بلاغاً مخالفاً

310 المراكشي، المعجب، «أول أمر المرابطين بالأندلس»، خبر دعوته إلى إشبيلية، عبارة «إنما جئت ناوياً». يذكر السياق حصن ليط في تسلسل العبور الأول، وهو مما يمنع اعتماد تسلسله وحده للتوقيت. الموضع.

311 ابن أبي زرع، الأئیس المطرب بروض القرطاس، نسخة 1917، ص 93 المطبوعة/صفحة الملف 94. دعاء العبور روي في المصدر، عرض المعنى دون اقتباس حرفي بسبب عدم مقابلة الصورة واضطراب بعض كتابة التفریع. موضع الشاهد.

في ظاهر لفظه عن الرغبة في ملكها. تحفظ القراءتان في سياقهما دون تأليف قول ثالث منهما.³¹²

٧ عند رؤية جيش خصمه. ينقل المراكشي عنه، في حديثه مع المعتمد، قوله في ألفونسو: «ما كنت أظن هذا الخنزير - لعنه الله - يبلغ هذا الحد». تتصل الكلمة في الرواية بكثرة الجيش وجودة سلاحه وخيله؛ وهي من لغة العداوة في الخبر، لا لفظ تعظيم للشجاعة. ثم يذكر المؤلف جمعه أصحابه وانتدابه من يعظمهم.³¹³

٨ التحريض يوم الزلاقة. يروي ابن أبي زرع عنه: «يا معشر المسلمين اصبروا لجهاد أعداء الله الكافرين، ومن رزق منكم الشهادة فله الجنة، ومن سلم فقد فاز بالأجر العظيم والغنيمة». ضبطت علامات الترقيم والرسم الإملائي، وبقيت الرواية منسوبة إلى مصدرها المتأخر عن الواقعة.³¹⁴

312 المراكشي، المعجب، «وقعة الزلاقة»، فقرة استعراض الجند على حصن الرقة. كلامه عن صغر الجزيرة مقترن في المصدر بتفسير سياسي، ويختلف عن البلاغ اللاحق في «نكبة بني عباد»؛ لم يجمع في مجلس واحد. الموضع.

313 المراكشي، المعجب، «وقعة الزلاقة»، خبر ترأى الجيشين، عبارة «ما كنت أظن». الكلمة مقترنة في الرواية بكثرة الجيش والسلاح ثم جمع يوسف أصحابه وانتداب من يعظمهم. الموضع.

314 ابن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس، نسخة 1917، ص 95 المطبوعة/صفحة الملف 96. جملة من التحريض في خبر الزلاقة، مقابل لفظها على التفرغ الإلكتروني. لم ينقل باقي الخطبة أو تفاصيل المشهد على أنها ثابتة بأسانيد مستقلة. موضع الشاهد.

٩ في الغنيمة بعد الظفر. يذكر ابن خلكان أن يوسف عفا عن الغنائم وآثر بها ملوك الأندلس، وأعلمهم أن غرضه كان الغزوا لا النهب. هذا معنى حكاة المؤرخ، وليس في هذا الموضع نص خطاب مباشر نضعه بين علامتي اقتباس على لسان يوسف. تأتي قيمته من اتصال الكلام بالفعل الذي يرويهِ الخبر: ترك المغانم لمن معه، وبيان المقصد من العبور.³¹⁵

في الحلف والسلطان والمكاتبات

١٠ في إظهار مكانة المعتمد. ينقل المراكشي عنه، وهو يجول في الأندلس ويظهر إجلال المعتمد، قوله: «إنما نحن في ضيافة هذا الرجل وتحت أمره، وواقفون عند ما يحده». يعرض المؤلف هذا القول إلى جانب تفسيره لرغبة يوسف في الجزيرة؛ فلا تفصل العبارة عن ذلك السياق، ولا تحمل على أنها وصف لجميع مراحل العلاقة بين الرجلين.³¹⁶

١١ في المعتمد والمعتصم. وفي خبر تقريب المعتصم بن صمادح، صاحب المرية، يروي المراكشي أنه كان يقول لأصحابه: «هذان رجلا هذه الجزيرة»؛ ويعني المعتمد والمعتصم. يذكر المؤلف أن ثناء

315 ابن خلكان، وفيات الأعيان، 7/117، ترجمة يوسف، خبر ما بعد الزلافة. عبارة الغزوا لا النهب عرض للمقصد بصوت المؤرخ؛ لم تحول إلى اقتباس مباشر من كلام يوسف. النص.

316 المراكشي، المعجب، عقب خبر الزلافة وقبل خبر المعتصم والمعتد. الموضع.

المعتمد على المعتمد كان من أسباب تقريره، ثم يمضي إلى ما يرويه من إفساد العلاقة بين يوسف والمعتمد. فالعبارة تحفظ تقديراً منقولاً في مرحلة من العلاقة، وتبقى تمة الخبر في سياقها.³¹⁷

١٢ كتاب الطمأنة إلى أمراء الأندلس. يروي ابن خلكان أن الكاتب صاغ ليوسف كتاباً ثم قرأه عليه بلسانه فاستحسنه. وهذا نصه كما أورده:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من يوسف بن تاشفين، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، تحية من سالمكم، وسلم إليكم، وحكمه التأييد والنصر فيما حكم عليكم، وإنكم مما بأيديكم من الملك في أوسع إباحة، مخصوصون منا بأكرم إيثار وسماحة، فاستديموا وفاءنا بوفائكم، واستصلحوا إخواننا بإصلاح إخوانكم، والله ولي التوفيق لنا ولكم، والسلام».³¹⁸

هذه رسالة صادرة باسمه في الرواية، وليست دليلاً على أنه أنشأ ألفاظها بنفسه. ويعتمد ابن خلكان في سياقها على كتاب «المعرب» الذي لم يسم مؤلفه.

317 المراكشي، المعجب، «بين المعتمد بن صمدح والمعتمد بن عباد»، الموضع.
318 ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج 7 ص 115 بحسب الصفحة الإلكترونية، ترجمة يوسف بن تاشفين. تمة كتاب إلى أمراء الأندلس صاغه الكاتب وقرأه على يوسف بلسانه فاستحسنه؛ سياق الترجمة يرجع في هذه القصة إلى كتاب المعرب الذي لم يسم ابن خلكان مؤلفه في صدر النقل. لا تخلط هذه الرسالة بجواب ألفونسو، ولا تجعلها إنشاء شفوياً ليوسف. الشاهد المباشر.

١٣ مكاتبة ألفونسو. يذكر ابن أبي زرع أن يوسف دعاه إلى الإسلام أو الجزية أو الحرب. يثبت هنا مضمون الدعوة الذي تعرضه الرواية، دون تركيب رسالة طويلة من صيغ شائعة في كتب الفتوح.³¹⁹

١٤ الكتاب إلى ابن هود. تحفظ «الحلل الموشية» جواباً إلى المستعين بالله أحمد بن هود، صادراً من مراکش. يذكر وصول ابنه عبد الملك ورسوله، وقبول كتابه، وإبلاغهم جواب يوسف؛ وينتهي إلى الوفاق والانتظام فيما يرضي الله. هذا تلخيص وحدة الرسالة، إذ اضطربت قراءة ألفاظ متفرقة في النص الرقي، فلا تعرض على أنها مقابلة حرفية لجميع كلماتها.³²⁰

١٥ خبر الرغبة في ملك الأندلس. يستهل المراكشي هذا الخبر بقوله «فبلغني»، ثم ينسب إلى يوسف مخاطبة بعض ثقاته: «كنت أظن أنني قد ملكت شيئاً، فلما رأيت تلك البلاد، صغرت في عيني مملكتي؛ فكيف الحيلة في تحصيلها؟». يحتفظ الخبر بقيد البلاغ؛

319 ابن أبي زرع، روض القرطاس، طبعة 1917، ص94، مضمون المكاتبة قبل الزلافة؛ وانظر كتاب الفتوح ص97. ص94، ص97.

320 الحلل الموشية، طبعة دار الرشاد، ص75، جواب يوسف للمستعين بن هود. عرضت الرسالة بالمعنى، وقوبل موضعها بالصورة. النص.

فلا يصير كلاماً مسنداً إلى شاهد معروف، ولا يحذف لأنه يخالف صورة الفضائل.³²¹

١٦ الغرض المعلن من الضم. ينقل المراكشي عنه، بعد حديثه عن انتقال الممالك إلى المرابطين:

«إنما كان غرضنا في ملك هذه الجزيرة أن نستنقذها من أيدي الروم، لما رأينا استيلاءهم على أكثرها، وغفلة ملوكهم وإهمالهم للغزو وتواكلهم وتخاذلهم وإيثارهم الراحة؛ وإنما همة أحدهم كأس يشربها، وقينة تسمعه، ولهوى يقطع به أيامه. ولئن عشت لأعيدن جميع البلاد التي ملكها الروم في طول هذه الفتنة إلى المسلمين، ولأملأنها عليهم - يعني الروم - خيلاً ورجالاً لا عهد لهم بالدعة، ولا علم عندهم برخاء العيش؛ إنما هم أحدهم فرس يروضه ويستفرهه، أو سلاح يستجيده، أو صريخ يليي دعوته».³²²

هذا تصوير للمقصد في رواية المؤلف، وفيه تعميم هجائي على ملوك الطوائف؛ لا يجعلهم هذا الكتاب أفراداً متمثلين. والوعد باسترداد البلاد مقصد منقول، لا خبر عن إنجاز تم كله.

321 المراكشي، المعجب، «نكبة بني عباد». يصرح المؤلف بصيغة «فبلغني»، ولا يسمى الخبر. الموضع.

322 المراكشي، المعجب، «فصل رجع الحديث عن دولة المرابطين بالأندلس»، الفقرتان اللتان تبدآن بخبر الإمداد وتكملان بعبارة «ولئن عشت». الموضع.

في العهد والوصية والعفو

١٧ العهد إلى علي. يحفظ النص الذي كتبه أبو محمد بن عبد الغفور باسم يوسف تعليل الاستخلاف بمسؤولية الرعاية. وفي أوله، بحسب النقل المنشور: «خاف أن يسأله الله غدا عما استرعاه، كيف تركه هملاً لم يستنب فيه سواه». ثم يذكر اختيار علي بعد استشارة أهل الرأي، وإحضاره وقبوله الشروط، وإثبات الشهادة على النائب والمستنيب.³²³

هذه وثيقة عهد صيغت باسم الأمير، وليست حديثاً شفهياً يرويه شاهد عن فراش الموت. يجمع معناها بين اختيار من يلي الأمر وبين تحميله شروطه، ويحضر فيها النظر إلى مصالح الخاصة والجمهور. تحفظ هنا وحدة المعنى مع اقتباس الجملة الافتتاحية، ويعود من أراد ألفاظ الوثيقة المطولة إلى موضعها المتصلين في الحاشية.

١٨ الوصايا الأخيرة. تروي «الحلل الموشية» أنه أوصى علياً بثلاث: ألا يهيج أهل جبل درن ومن وراءه من المصامدة وأهل القبلية؛ وأن يهادن بني هود ويتركهم حائلين بينه وبين الروم؛ وأن يقبل من محسن أهل قرطبة ويتجاوز عن مسيئهم. نقلت الوصايا هنا بالمعنى، وحفظ عددها كما في المصدر. ويشهد ابن الأثير للوصية

323 الحلل الموشية، ص 78-80؛ والنص منقول في عنان، دولة الإسلام في الأندلس، 3/45-46. الجملة المقتبسة مقابلة على نقل عنان؛ بقية العهد ملخصة. أول النص، تمتته، الحلل.

بني هود بلفظ مستقل: «اتركهم بينك وبين العدو، فإنهم
شجعان».³²⁴

١٩ جواب في العفو. وفي حكاية أصحاب الأمنيات التي نقلها ابن
خلكان عن ابن الأثير، قال لمن تمنى زوجته: «يا جاهل، ما حملك
على هذا الذي لا تصل إليه؟». يأتي القول في حكاية انتهت
بإطلاق الرجل وإعطائه مالاً وكسوة، ولا يحمل حكماً عاماً على
بقية خصومات يوسف.³²⁵

تظهر في هذه المادة وجوه متعددة: عزم على النجدة، وخطاب
وفاء، ونظر في القوة، وطموح يروى بصيغة بلاغ، وتدبير لما بعد
الوفاة. وتبقى بعض الكلمات منقولة في أخبار متأخرة أو بواسطة
مؤرخ آخر. لذلك تُقرأ الأقوال مع الأفعال وفروق الرواية، ويُترك
لكل نص سياقه الذي يمنع أن يتحول إلى حكمة مبتورة أو شهادة
أوسع من دليله.

324 الحلل الموشية، ص 82-83، الوصايا الثلاث؛ وابن الأثير، الكامل، حوادث 484هـ، وصية
بني هود. عرض «الحلل» بالمعنى، واقتباس لفظ «الكامل». الحلل، الكامل.

325 ابن خلكان، وفيات الأعيان، 7/125، نقلاً عن ابن الأثير. النص.

الفصل السادس والأربعون أقوال المؤرخين في يوسف

بعد سماع ما روي من كلام يوسف، نسمع أصوات من كتبوا سيرته. لكل مؤرخ طريقته في جمع الأخبار، وموضع ينظر منه إلى الرجل. وهذه الأقوال تعين على فهم صورته في كتب التاريخ، ولا تقوم مقام فحص الوقائع التي بنيت عليها. وقد يجتمع في الترجمة الواحدة ثناء ونقد؛ فنقرأهما معاً، ونرد كل حكم إلى ما يحتمله خبره.

ابن الأثير حسن السيرة وإكرام أهل العلم

قال ابن الأثير، في حوادث سنة خمس مائة عند ذكر وفاة يوسف: «وكان حسن السيرة، خيراً، عادلاً، يميل إلى أهل الدين والعلم، ويكرمهم، ويصدر عن رأيهم».³²⁶

326 ابن الأثير، الكامل في التاريخ، حوادث سنة 500هـ، «ذكر وفاة يوسف بن تاشفين وملك ابنه علي». الموضع الإلكتروني، دون نسبة رقم صفحة مطبوعة. النص.

يربط هذا الوصف حسن السيرة بعلاقة الحاكم بأهل العلم؛ لا يكتفي بوصفهم زينة في مجلسه، بل يذكر الرجوع إلى رأيهم. وفي موضع لاحق من الخبر نفسه يقول:

«وكان يوسف بن تاشفين حليماً، كريماً، ديناً، خيراً، يحب أهل العلم والدين، ويحكمهم في بلاده، وكان يحب العفو والصفح عن الذنوب العظام».³²⁷

هذه خلاصة تقويم ابن الأثير. وهي لا تعني أن كل قرار صدر في دولة يوسف يصير صواباً لمجرد هذا الثناء؛ فالصفة العامة تفسر وجهاً من السيرة، وتبقى الوقائع المفردة محتاجة إلى النظر في أخبارها.

ابن خلكان المشورة جزء من صورة الرجل

من وصف ابن خلكان ليوسف قوله:

«مؤثراً لأهل العلم والدين كثير المشورة لهم».³²⁸

327 ابن الأثير، الكامل، حوادث سنة 500هـ، تمة خبر الوفاة، فقرة «وكان يوسف بن تاشفين حليماً». فصلت عن الفقرة السابقة في المصدر خبر وفاة يوسف وخلافة علي ثم عادت إلى يوسف. النص.

328 ابن خلكان، وفيات الأعيان، 7/125، تمة وصف يوسف. اقتبس الوصف المتصل في أول الصفحة؛ ويصرح المؤلف بعدها بالنقل عن ابن الأثير. النص.

ويورد بعد ذلك ثناء ابن الأثير صراحة باسمه. لهذا لا نعد نقل ابن خلكان لكلامه شهادة مستقلة ثانية، وإن كان وجوده يكشف كيف انتقل هذا التقويم إلى كتب التراجم. وتبقى المشورة من أبرز ما اختاره ابن خلكان عند رسم صورة يوسف.

ابن أبي زرع الحزم وقلة المؤونة

يصفه ابن أبي زرع في مطلع أخباره بأنه شجاع حازم، مهاب، ضابط للملكة، ثم يذكر زهده وتقشفه، ولباس الصوف، وطعام الشعير ولحوم الإبل وألبانها مع اتساع ملكه.³²⁹ هذا عرض لمعنى النص؛ لم تجعل ألفاظ التفريغ التي اضطرب رسم بعضها اقتباساً حريفاً طويلاً.

يضم الوصف إلى صورة القائد شأنه في نفسه. ومن هنا لا يكون السؤال عن مقدار ما فتحه وحده، بل عما صنعتته القدرة بعاداته وحاجاته. وقد تقدمت قراءة هذه الأخبار في موضعها، بما يحفظ نسبة الرواية ولا يحول الثناء العام إلى سجل مفصل لكل يوم من أيامه.

329 ابن أبي زرع، روض القرطاس، طبعة 1917، ص 87 المطبوعة، صدر ترجمة يوسف. عرض للمعنى من التفريغ الإلكتروني؛ لم تقابل الصورة هنا. النص.

صاحب الحلل الموشية تعظيم العلماء

يذكر صاحب «الحلل الموشية»، في حديثه عن سيرة يوسف، فضله وزهده وعزة نفسه وخوفه من الله، ويصف تعظيمه العلماء ورجوعه إلى الفقهاء في الأمور والحكم على نفسه بفتواهم. ويذكر كذلك أن من عقابه الاعتقال الطويل.³³⁰

في هذا الوصف مادة للثناء، وفيه ما يدعو إلى سؤال عن حال من يقع عليه العقاب. لذلك لا نحذف الجانب الأخير لنصنع مدحاً متصلاً؛ فصورة الحاكم تشمل ما يكرمه الناس فيه وما يتحمل مسؤوليته من استعمال القوة. والنص هنا منقول بالمعنى من الموضع المعين، لا على أنه ألفاظ حديثة نطق بها المؤرخ.

المراكشي البلاء في الزلافة

قال عبد الواحد المراكشي في خبره عن القتال:

«فأظهر يوسف بن تاشفين وأصحابه من الصبر وحسن البلاء والثبات ما لم يكن يحسبه المعتمد».³³¹

330 الحلل الموشية، تحقيق زكار وزمامة، دار الرشاد، 1979، ص 81-82، «سيرة أمير

المسلمين يوسف بن تاشفين». عرض بالمعنى، قبل على صورة المطبوع. النص.

331 المراكشي، المعجب، «وقعة الزلافة»، فقرة القتال. اقتبس حكمه على يوسف وأصحابه، دون تبني التاريخ المختلف فيه الذي يسوقه في تمة الخبر. الموضع.

يشارك في الثناء يوسف وأصحابه؛ وهذه ملاحظة تحفظ حضور الرجال الذين قام بهم الفعل. ويصف المراكشي بعد ذلك سرور أهل الأندلس وكثرة الدعاء ليوسف وإعظامهم له، لكنه يروي في السياق نفسه تشوفه إلى ملك الجزيرة. فالمؤرخ الذي نقل الإعجاب لم يعرض علاقة يوسف بالأندلس على صورة واحدة لا تبدل.³³²

الذهبي ثناء لا يحو النقد

قال الذهبي في ترجمة «صاحب الغرب»:

«فطلع بطلاً شجاعاً شهماً عادلاً مهيماً».³³³

ثم، في حديثه عن استيلائه على الأندلس، قال:

«وأخذ ابن عباد وسجنه، وأساء العشرة».³³⁴

وفي الترجمة نفسها يورد بصيغة «وقيل» وصفه بكثرة العفو وتقريب العلماء، ويصفه بالسياسة والحزم، ثم يذكّر إلى جانب ذلك نقداً

332 المراكشي، المعجب، عقب خبر الزلاقة، وصف استقبال أهل الأندلس ثم الجولة في الجزيرة. عرض المعنى منسوباً إلى المؤرخ، ولا يدعي علماً مستقلاً بدوافع يوسف. الموضع.

333 الذهبي، سير أعلام النبلاء، ترجمة «صاحب الغرب»، 19/252-253 بحسب مواضع الانتقال في النص الإلكتروني. النص.

334 الذهبي، سير أعلام النبلاء، ترجمة «صاحب الغرب»، 19/253. نقلت عبارة نقده في ابن عباد دون فصلها عن ثنائه السابق. النص.

للشدة والعسف.³³⁵ نثبت اجتماع هذه المعاني في المصدر، ولا نحول العبارة المصدرة بـ«وقيل» إلى شهادة مباشرة من صاحب الكتاب.

هكذا يخرج القارئ من أقوال المؤرخين بصورة أوسع: شجاعة، وحزم، وتقشف، ومشورة، وعفو مروى، وسلطة لها تبعات ومواطن نقد. وتبقى السيرة هي الموضع الذي تفهم فيه هذه الأوصاف بمواقفها، حتى لا تتحول كلمة مدح إلى عصمة، أو كلمة نقد إلى محو لكل ما سبقها من عمل.

335 الذهبي، سير أعلام النبلاء، ترجمة «صاحب الغرب»، 19/253-254، الفقرة المصدرة بـ«وقيل». بقيت صيغتها ظاهرة في المتن، وعرض معناها دون تبني تعميمها على جماعة. النص.

الفصل السابع والأربعون ماذا خرجت به من هذه القدوة

أغلقت آخر خبر من أخبار يوسف، وبقيت حياتك مفتوحة أمامك: عمل لم يتم، ووعد ينتظر الوفاء، وقرار تؤجله، وناس لهم في وقتك أو مالك أو علمك حق. هنا يتبين نصيبك من السيرة. وقد يكون أول ما تنتفع به صغيراً في عين غيرك، لكنه يعالج خلاً ظل يتكرر في يومك، أو يرفع عن إنسان عبئاً كنت تستطيع رفعه.

لن تحتاج إلى أن تشبه يوسف في منصبه حتى تنتفع به. اختر من سيرته ما يضيء مسؤولية تحملها أنت، ثم انظر في الفروق بين الموقفين. فالقيادة في دولة قديمة لا تمنح أحداً اليوم حق التصرف في شؤون الناس بغير إذنهم، وحزم القائد لا يبرر قسوة الأب أو المدير، والاقتصاد في شأن النفس لا يجيز التقصير في النفقة الواجبة. تنتقل الفضيلة إلى حياتنا حين نفهم مقصدها وحدودها، ونجد لها عملاً صحيحاً يناسب الحال.

وهذا القسم اقترح معاصر من قراءة السيرة. الخطوات والأمثلة الآتية من صياغتنا، وليست تعليمات تاريخية وضعها يوسف. اقرأها ثم اختر، فقد تحتاج إلى مسار واحد، وقد تجد أن حاجتك

اليوم تختلف عما كنت تظن وأنت تقرأ أخبار الفتوح. لا يجعل اتساع إعجابك اتساع التكليف مناسباً لك.

قبل أن تختار عملاً

ابدأ بسؤال أقرب من سؤال: كيف أصنع أثراً عظيماً؟ اسأل: ما الأمر الذي أعرف أنه يحتاج إلى إصلاح، وأملك فيه نصيباً حقيقياً من المسؤولية؟ ربما كان أخاً يحتاج إلى من يعينه على التعلم، أو إجراءات يتعطل بسببها أصحاب الحاجات، أو فريقاً تكرر فيه الوجود ولا يعرف أحد من يتابعها، أو مალًا يتسرب في مشتريات لا تختارها عن وعي.

صف الحاجة كما يراها صاحبها. عبارة «أريد أن أخدم الناس» واسعة، أما «تصل إلى فريقنا أسئلة متكررة ولا يجد أصحابها جواباً واضحاً» فتدل على عمل يمكن البدء به. وإذا كانت الحاجة تخص غيرك فاسأله قبل أن تجعل ظنك خطة لحياته. قد تعرض عليه مساعدة لا يريدها، أو تختار له وقتاً لا يستطيع الالتزام به، أو تحمل عنه عملاً يريد أن يتعلم أدائه بنفسه.

ثم انظر إلى قدرتك نظرة صادقة. ما الوقت الذي تملكه بعد أداء واجباتك؟ ما المعرفة التي تحسنها فعلاً؟ من الشخص الذي يكمل نقصك؟ ما المال أو المكان أو الأداة التي تحتاج إليها؟ وما الإذن الذي لا يبدأ العمل بدونه؟ لا تؤخر البداية انتظارك لكل شيء،

لكن لا تسمّ تجاهل هذه الأسئلة شجاعة. البداية الصالحة تعرف ما معها وما ينقصها.

اكتب حاجتك في سطر، وضع تحته اسم من ينتفع بمعالجتها، ثم فعلاً واحداً تقدر عليه خلال أسبوع. إن عجزت عن تسمية الفعل، فاجعل أول عملك الاستيضاح: سؤال صاحب الحاجة، أو مقابلة من يعرفها، أو فحص المحاولة السابقة التي لم تتم. بهذه الخطوة تخرج من الرغبة العامة إلى شأن معلوم.

المسار الأول أن تجيب النداء بما تستطيع

في خبر استنجد المعتمد، يروي المراكشي جواب يوسف: «أنا أول منتدب لنصرة هذا الدين، ولا يتولى هذا الأمر أحد إلا أنا بنفسي!». ثم يتصل الجواب في خبره بالتهيؤ للعبور وجمع من يقدر على جمعه من الرجال.³³⁶ ما يصلح أن تصحبه من هذا الموضع هو الانتقال من معرفة الحاجة إلى تحمل نصيب من كلفتها، مع إعداد ما يحتاج إليه العمل.

قد ترى في محيطك مشكلة اعتاد الجميع الحديث عنها، حتى صار وصفها بديلاً من معالجتها. اختر الجزء الذي يدخل في قدرتك: أن

336 المراكشي، المعجب، «أول أمر المرابطين بالأندلس»، جواب الاستنجد ثم التهيؤ للعبور. الموضع.

تدل صاحبها على جهة مناسبة، أو تجمع معلومة متفرقة، أو تخصص وقتاً معلوماً لخدمة نيتها. وإذا كان غيرك أقدر على العمل، فقد يكون نصيبك النافع أن تصل بينه وبين المحتاج إليه، وأن تتابع وصول المساعدة من غير أن تزاحمه على موضعه.

أول فعل في هذا المسار اتصال واضح لا وعد مفتوح. قل لصاحب الحاجة ما تستطيع فعله ومتى، واسأله هل يناسبه ذلك. حدد ما يحتاج إليه منك وما لا تقدر عليه. فإذا كنت ستساعد طالباً، مثلاً، فاتفقا على مادة بعينها وموعد يمكن الوفاء به، واطلب ما يلزم للتحضير قبل الموعد. لا تبدأ بإعلان أنك ستغير مستواه كله.

بعد المحاولة، اسأل سؤالين منفصلين: هل أدت ما التزمت به؟ وهل انتفع صاحب الحاجة بما أدت؟ قد تنجز عملك كما خططت، ثم يتبين أن الحاجة مختلفة. هنا تصبح المراجعة جزءاً من الخدمة، وتكون القدرة على التعديل أنفع من الدفاع الطويل عن حسن نيتك. لا تجعل امتنان الناس شرطاً للاستمرار، ولا تجعل صمتهم دليلاً كافياً على نجاحك.

المسار الثاني أن تحمل كلفة ما تطلبه

يذكر ابن أبي زرع، في خبر بناء مسجد مراکش، أن يوسف كان يعمل فيه بيده مع العاملين.³³⁷ يضعنا الخبر أمام مشاركة محسوسة في عمل يجري بأمره. وما نستخرجه لحياتنا هو سؤال المسؤول عن الكلفة التي تخصه: ماذا أقدم أنا حتى يستطيع الآخرون أداء ما أطلبه منهم؟

انظر إلى عمل قائم تشارك فيه، ولا تبدأ بإضافة مشروع آخر. هل تعطل الناس لأن جوابك يتأخر؟ هل تطلب منهم الدقة ثم ترسل إليهم معلومات ناقصة؟ هل تضع موعداً لا تسألهم عن إمكانه؟ وقد تكون كلفتك أن تحسم أمراً، أو نتعلم ما تجهله، أو تراجع خطأ ارتكبته، أو تتخلى عن جزء من الراحة حتى يستقيم وعد ألزمته نفسك.

اختر التزاماً يراه من يعمل معك ويستفيد منه. يمكن أن يكون موعداً ثابتاً للرد على طلباتهم، أو تجهيز المادة التي يحتاجون إليها قبل أن تطالبهم بالنتيجة، أو تولي الجزء الذي أهمله الجميع لأنه قليل الظهور. لا تحول المشاركة إلى عرض عابر يلتقط الأنظار ثم يعيد العبء كاملاً إلى غيرك.

337 ابن أبي زرع، روض القرطاس، طبعة 1917، ص 89 المطبوعة، خبر بناء مسجد مراکش. النص.

وليكن شاهد التقدم أمراً يمكن الرجوع إليه: انتهى الانتظار بسبب جوابك، أو وصل المورد في وقته، أو انخفض تكرار الخطأ بعد أن أصلحت تعليماتك. وإذا لم ترفقاً، فاسأل زملاءك عن العائق الذي بقي. قد يكون ما قدمته كريماً في ذاته، لكنه لم يقع في الموضع الذي يتوقف عليه عملهم.

المسار الثالث أن تستشير وأنت مستعد لتغيير رأيك

يصف ابن الأثير يوسف بأنه يميل إلى أهل الدين والعلم، ويكرمهم، ويصدر عن رأيهم.³³⁸ والانتفاع بهذا الوصف يبدأ من طريقة عرضك للمسألة. تستطيع أن تسأل وأنت لا تريد إلا موافقة تجمل قراراً اتخذته، وتستطيع أن تسأل لتعرف ما غاب عنك ولو ألزمتك الجواب بالتراجع.

إذا عرض لك قرار مهم في حدود مسؤوليتك، فاكتب الواقعة قبل كتابة الحل الذي تميل إليه. ما الذي حدث؟ ما الذي تعرفه يقيناً؟ ما الذي سمعته ولم تفحصه؟ من يتأثر بالقرار؟ وما الخيارات المتاحة؟ أعط المستشار التفاصيل التي قد تضعف رأيك كما تعطيه التفاصيل التي تؤيده. لا يصح انتظار نصيح سديد من صورة انتقيت نصفها.

338 ابن الأثير، الكامل في التاريخ، حوادث سنة 500هـ، «ذكر وفاة يوسف بن تاشفين وملك ابنه علي». الموضع الإلكتروني، دون نسبة رقم صفحة مطبوعة. النص.

اختر من يفهم الموضوع، ثم استمع أيضاً إلى من سيقع عليه أثر القرار. قد تحتاج في مشروع تعليمي إلى خبرة معلم، وتحتاج إلى معرفة وقت المتعلم وقدرته؛ ولكل منهما معرفة لا يقوم الآخر مقامها فيها. أما ما له اختصاص شرعي أو طبي أو قانوني، فيرجع فيه إلى أهله، وتبقى الاستفادة من السيرة عوناً على حسن السؤال وتحمل المسؤولية.

أول فعل هنا أن تعرض مسألة واحدة عرضاً أميناً على شخص مناسب. وبعد المشورة، سجل ما تغير في فهمك، وما الذي ستفعله بناء عليه. وإذا أخذت بخلاف ما أشار به، فليكن ذلك لسبب تفهمه وتحمل تبعته، لا لأنك جمعت أسماء المستشارين لتتوزع بينهم مسؤولية اختيارك.

المسار الرابع أن تبقى الزيادة في خدمتك

ينقل ابن أبي زرع قلة مؤونة يوسف في لباسه وطعامه مع سعة ملكه. ويذكر ابن خلكان، في خبر ما بعد الزلافة، أنه آثر ملوك الأندلس بالغنائم وبين لهم أن مقصوده الغزو لا النهب.³³⁹ لا تدعونا هذه الأخبار إلى استنساخ طعام بيئة أخرى؛ إنها تفتح

339 ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص 87 في قلة المؤونة؛ وابن خلكان، وفيات الأعيان، 7/117 في الغنيمة. الخبر الثاني نقل للمعنى. الأول، الثاني.

سؤالاً عن القدرة حين نتسع: هل صرت أملك بها نفعا أكبر، أم صرت أسير حاجات جديدة كلما ازدادت مواردني؟

اختر مورداً واحداً تراجعهُ: مالا، أو وقتاً، أو أدوات تقتنيها، أو نفوذاً يمنحك سهولة الوصول. واجعل مراجعتك باباً لشكر النعمة: تعرف فضل الله فيها، وتستعملها فيما يرضيه؛ فالشكر يتصل بما يفعله الإنسان بما أعطي، كما يتصل بما يقوله.³⁴⁰ انظر أولاً إلى الحقوق الواجبة والحاجات المعقولة، ثم إلى ما تستطيع تخفيفه من غير إضرار بنفسك أو بمن تعول. وقد يكون حسن التصرف في موردك أن تنفق على راحة لازمة، أو تعلم تحتاج إليه، أو إصلاح يمنع خسارة متكررة. ولا تجعل قلة المال فضيلة بذاتها؛ فقد يكون الكسب الحلال وصلة القرابة بما يفضل منه وجهاً من وجوه النفع. وفي رواية المروزي عن أحمد حث من كانت عنده كفاية على العمل لينفع قرابته.³⁴¹

إذا اخترت تقليل إنفاق، فحدد أين سيذهب ما توفر؛ وإلا فقد يتسرب إلى باب آخر فلا يتغير شيء. وإذا اخترت وقتاً، فاجعل

340 ابن القيم، الوابل الصيب من الكلم الطيب، صدر الكتاب، في الاعتراف بالنعمة والتحدث بها واستعمالها في مرضاة الله. الإحالة إلى مطلع النص، دون ادعاء رقم صفحة مطبوعة. النص.

341 الخلال، الحث على التجارة والصناعة والعمل، الخبران 1-2، رواية أبي بكر المروزي عن أحمد. لا تشتمل النسخة الرقمية المعينة على ترقيم صفحات مطبوع صالح للإحالة، فأحيل إلى رقمي الخبرين. النص.

له موعداً وعملاً، واترك قدراً من المرونة لما يعرض لك. لا تحوّل
الاقتصاد إلى محاكمة دائمة لنفسك، ولا تتخذ زهدك حجة لتلزم
أهلك ما لم يلتزموه أو تمنع عنهم حقاً.

راجع بعد مدة مناسبة: هل خف عبء حقيقي؟ هل صار مورد
متاحاً لعمل أنفع؟ هل التزمت بالحد من غير قسوة أو اضطراب؟
هذه أسئلة أصدق من المفاخرة بما تركت. وقد يكون التعديل
المطلوب زيادة إنفاق في موضع أهملته، لا مزيداً من التضييق.

المسار الخامس أن تحب وتعديل

يجمع الذهبي في ترجمة يوسف بين الشاء على شجاعته وهيبته، وبين
نقد معاملته لابن عباد.³⁴² لا تختبرنا هذه القراءة في مقدار محبتنا
للرجل وحده؛ تختبر قدرتنا على ألا نجعل الفضيلة إذناً بتجاوز حق
آخر، وألا نجعل الخطأ سبباً لإلغاء كل إحسان.

ابداً من خبر تتداوله عن شخص تحبه أو تخالفه. اطلب أصله، واقرأ
ما قبل العبارة وما بعدها، وميز لفظ صاحبه من تعليق الناقل. إذا
لم يتبين لك، فاستطع أن تقول إنك لا تعلم. وإذا تبين خطأك،

342 الذهبي، سير أعلام النبلاء، ترجمة «صاحب الغرب»، 19/252-253، الشاء ثم نقد معاملة
ابن عباد. النص.

فصح الخبر في الموضع الذي نشرته فيه بقدر ما تستطيع؛ ليس من الإنصاف أن ينتشر الخطأ علناً ويظل تصحيحه حبيس نفسك.

ولهذا المسار عمل آخر في الخلاف اليومي: صف الفعل الذي تعترض عليه بدل الحكم على الإنسان كله. اسمع جوابه، واحفظ ما له من حق، ولا تستعمل سلطتك أو معرفتك لإحراجه في أمر لا صلة له بالنزاع. وقد تنتهي إلى بقاء الخلاف، لكنك تستطيع أن تمنع إضافة ظلم جديد إليه.

شاهد التقدم هنا موقف محدد: خبر امتنعت عن نشره قبل التثبت، أو حكم عدلته، أو اعتذار أديته، أو حق أبقيته لصاحبه مع اختلافك معه. لا تجعل نجاح هذا المسار شهادة تمنحها لنفسك بأنك صرت منصفاً في كل شيء؛ عد إليه كلما تحرك فيك باعث الانتصار للمحبوب أو للنفس.

المسار السادس أن تترك العمل قابلاً للاستمرار

حفظت المصادر عهد يوسف إلى علي ووصايا تتعلق بالتعامل مع جهات من دولته. ومن ذلك الوصية ببني هود، التي يروي ابن الأثير مضمونها في سياق وضعهم بين المرابطين وخصومهم.³⁴³

343 الحلل الموشية، ص 78-80 في العهد، وص 82-83 في الوصايا؛ ابن الأثير، الكامل، حوادث 484هـ في بني هود ووصية يوسف لابنه. الحلل، الكامل.

ومهما اختلفت صورة السلطة بين عصره وعصرنا، يبقى سؤال نافع:
ماذا يحدث للعمل الذي أقوم عليه إذا غبت؟

قد تحتفظ وحدك بمعلومة يحتاج إليها الجميع، أو تدير خدمة لا يعرف غيرك كيف تبدأ، أو تتولى شأنًا عائليًا ثم لا تترك لصاحبه طريقًا واضحًا عند انشغالك. اختر عملاً متكرراً، واكتب خطواته الأساسية بلغة يستطيع غيرك فهمها. سجل الموعد، والمسؤولية، ومكان الموارد المسموح بمشاركتها، وما ينبغي فعله إذا تعذر المسار المعتاد.

لا تنقل إلى أحد أسراراً لا يحق له الاطلاع عليها، ولا تفوض ما لا تملك تفويضه. المقصود أن تحفظ العمل والحقوق، وأن يتعلم المشارك الجديد بقدر حاجته وصلاحيته. اجعله يجرب جزءاً معلوماً وأنت حاضر، ثم اسأله عما لم يفهمه. ما تراه واضحاً لأنك تكرره كل يوم قد يكون غامضاً لمن يبدؤه لأول مرة.

وتظهر النتيجة حين يستطيع العمل أن يمضي على وجه مقبول من غير أن تعود كل جزئية إليك. قد تشعر بأن دورك صار أقل ظهوراً، لكن نفعتك اتسع إذا صار غيرك قادراً على حمل نصيبه. ولا يلزم أن تنشئ مؤسسة؛ قد تكفي صفحة نافعة واتفاق واضح ومهارة نقلتها بأمانة.

مثال معاصر من الحاجة إلى المراجعة

لنتصور حالة افتراضية كاملة. يعمل سالم في فريق يقدم خدمة تطوعية لتعليم القراءة. لاحظ أن المتطوعين يكررون شرح المواعيد للمتطوعين، وأن بعض الأسر تصل في أوقات غير صحيحة. كان أول ما خطر له إنشاء قناة جديدة ونشر إعلان واسع. ثم سأل نفسه عن الحاجة قبل اختيار الأداة: هل المشكلة قلة الإعلان، أم تضارب المعلومات التي تصل إلى الناس؟

راجع مع المشرف الرسائل السابقة، وسأل اثنتين من الأسر عن الطريق الذي وصل إليهما به الموعد. تبين، في هذا المثال، أن إعلاننا قديماً لا يزال متداولاً، وأن موعد التعويض لا يذكر بوضوح. صارت الحاجة محددة: إتاحة موعد صحيح واحد، ومعرفة من يرجع إليه السائل حين يتعذر حضوره. لم يحتاج سالم في هذه المرحلة إلى حملة كبيرة.

عرض على المشرف أن يعد صفحة موجزة بالمواعيد المعتمدة، وشروط الالتحاق، وطريقة السؤال. اتفقا على أن يراجعها المشرف قبل نشرها، وأن تصل إلى الأسر عبر القناة المعتادة. خصص سالم ساعة لإعدادها، ثم نصف ساعة في نهاية الأسبوع لمراجعة ما ظهر من أسئلة. وطلب من زميل أن يختبر وضوحها، لأن الألفاظ المألوفة لأعضاء الفريق قد لا تكون مفهومة لمن يلتحق لأول مرة.

عند تجربة الصفحة، لاحظت إحدى الأسر أن موعد التعويض ما زال يحتمل معنيين. صحح سالم العبارة وأعادها إلى المشرف. كان يمكنه أن يدافع عن وضوحها وأن يلقي اللوم على القارئ، لكنه اختار أن يجعل ملاحظة المستفيد جزءًا من تحسين الخدمة. ثم سأل المشرف عن الإعلانات القديمة، فحذفت النسخ التي يملكون تعديلها، وأرسلت رسالة تصحيح في القناة نفسها.

بدأت التجربة على مجموعة صغيرة خلال أسبوعين. تابع الفريق، في هذا المثال، عدد الاستفسارات التي نشأت عن غموض الموعد، والحالات التي وصلت إلى المكان في وقت غير صحيح. لم يجمعوا أسماء الأسر في ملف عام، ولم يطلبوا تفاصيل شخصية لا تخدم الغرض. كانوا يريدون معرفة هل وصل البيان، لا بناء سجل يخرج من أخطأ.

في نهاية الأسبوع الأول بقيت أسرة لم يصل إليها التصحيح. اتضح أن الاعتماد على الرسالة المكتوبة وحدها لم يناسبها، فاتفق المشرف معها على وسيلة تواصل تستطيع استعمالها. لم تتحول هذه الحالة إلى لوم للأسرة أو حكم بأن التجربة فاشلة كلها؛ كشفت حاجة لم تدخل في التقدير الأول، وعدل الفريق طريقته بقدرها.

وفي الأسبوع الثاني استطاع زميل سالم تحديث الصفحة بعد تبدل موعد واحد، لأنه ترك خطوات واضحة للمراجعة والنشر. صار

العمل أقل اعتماداً على حضوره. وعند المراجعة لم يكن السؤال: كم شخصاً أعجب بالإعلان؟ بل: هل قل الالتباس؟ هل عرف المستفيدون كيف يسألون؟ هل الوقت الذي يبذله الفريق مناسب؟ وهل يستطيعون الاستمرار من غير أن تتعطل الخدمة الأساسية؟

هذا المثال لا ينسب إلى يوسف وسيلة إدارية معاصرة. إنه يبين كيف تتحول المعاني التي صحبناها في سيرته إلى خدمة محددة: سماع الحاجة، وتحمل جزء من كلفتها، واستشارة من يعرفها، وحفظ المورد والحق، والاستعداد للتعديل، وترك العمل مفهوماً لمن يواصل. وتستطيع تغيير المجال كله مع بقاء هذه الأسئلة نافعة.

تجربة تناسب أسبوعك

اختر مدة قصيرة تسمح لك بالمراجعة؛ أسبوعين أو شهراً بحسب العمل. في بدايتها افهم الحاجة وحدد أول فعل، ثم جربه على نطاق تستطيع متابعته. بعد أول محاولة، اطلب ملاحظة من شخص ينتفع بالعمل أو يفهمه. وفي نهاية المدة قرر: أستمركم أنا، أم أصغر العمل، أم أغير الطريق، أم أتوقف لأن الحاجة زالت أو لأن غيري يؤديها على وجه أنسب؟

ليس المطلوب ملء الأيام بتكليف جديد. إذا كان إصلاحك وفاء بوعد قديم، فقد تكون ثمرة التجربة أن تنهي الوعد ولا

تستبدل به وعداً أكبر. وإذا كان العمل متكرراً، فحدد الحد الذي تستطيع حفظه من وقت ومال. الاستمرار على قدر معلوم أصدق من اندفاع يحمل الناس على الاعتماد عليك ثم يتركهم عند أول انشغال.

اجمع في مراجعتك بين أمرين: ما تغير في سلوكك، وما وصل من نفع إلى غيرك. قد تصبح أكثر انتظاماً لكن الوسيلة لا تخدم المستفيد؛ وقد ينتفع الناس مرة وأنت تدفع كلفة لا تستطيع احتمالها طويلاً. النجاح الذي تريد بناءه يراعي الجانبين، ويقبل أن يحتاج الوصول إليه إلى أكثر من محاولة.

إذا تعثرت فلا تعد إلى البداية العمياء

إذا لم تبدأ، ففتش عن غموض الخطوة أو كبرها. قد تكون كتبت «أصلح علاقتي بأهلي»، ولم تحدد موقفاً واحداً تستطيع إصلاحه. صغ العمل مرة أخرى: أفي بوعد معلوم، أو أستمع إلى شكوى دون مقاطعة، أو أراجع ترتيباً يحمل أحد أفراد الأسرة فوق طاقته. لا تجعل العنوان الواسع سبباً لاتهام نفسك كل يوم من غير أن يتضح المطلوب.

وإذا بدأت ثم انقطعت، فاحص السبب قبل مضاعفة الوعد. هل اخترت وقتاً لا تملكه؟ هل اعتمدت على مورد غير مضمون؟ هل احتجت إلى مهارة لم تتعلمها؟ عدل الخطوة على قدر الجواب.

وإذا ترتب على الانقطاع حق لغيرك، فأخبره مبكراً واعتذر عما فات واقترح ما تستطيع الوفاء به، بدل الاختفاء حتى يزول حرجك.

وإذا عملت ولم تجد نفعاً ظاهراً، فاسمع لصاحب الحاجة، فقد تكون حددتها من وجهة نظرك وحدك. وقد تكون المدة أقصر من ظهور النتيجة، أو أن أثراً مهماً لا يظهر في العد الذي اخترته. لا تغير معيار المراجعة كل مرة لحماية صورتك، ولا تجعل الرقم وحده يحجب خبرة من يتلقى الخدمة.

وإذا جاءك نقد، فافصل بين ما يؤمك في أسلوبه وما يمكن أن يصح من مضمونه. خذ المعلومة النافعة، واستوضح ما غمض، وصحح ما تبين. لا يلزمك قبول حكم شامل على نفسك كي تصلح خطأ معيناً، كما لا يعفيك سوء عبارة الناقد من حق ثبت عليك.

وقد يتبين أن التوقف هو القرار الصحيح: لانتفاء الحاجة، أو لتعارض العمل مع واجب أهم، أو لظهور من يقوم به بأحسن مما تستطيع. أنه التزامك بوضوح، وسلم ما يلزم تسليمه، واحفظ حقوق الناس. قيمة التجربة فيما علمتك وما نفعته، وليست في إصرارك على بقائها بأي ثمن.

بطاقة البداية

قبل أن تغلق هذا الفصل، اكتب في ورقة خاصة بك إجابات قصيرة عن الأسئلة الآتية. لا تحتاج إلى مشاركة الورقة مع أحد إلا إذا نفعتك ذلك ورضيت به.

حاجتي الآن: ما الأمر المحدد الذي أريد إصلاحه، ولماذا أراه أولى من غيره؟

من ينتفع: من صاحب الحاجة، وكيف عرفت أن ما أقترحه يناسبه؟

المعنى الذي أصحبه: أي موقف أو وصف من السيرة أعاني على فهم مسؤوليتي؟ وما حدود الشبه بينه وبين حالي؟

أول فعل وموعده: ما العمل الصغير الواضح الذي سأؤديه، ومتى أبدأه؟

ما أحتاج إليه: من أستشير، وما المورد أو الإذن أو التعلم الذي يلزم قبل البدء؟

الحق الذي أحفظه: ما الذي يجب ألا يتضرر في أسرتي أو عملي أو لدى المستفيد بسبب هذه التجربة؟

شاهد التقدم: ما التغير الذي سألحت عنه في عملي، وما النفع الذي سأستوضح وصوله إلى غيري؟

موعد المراجعة: متى أتوقف للنظر في النتيجة، وما العلامة التي تدعوني إلى التعديل أو إلى إنهاء التجربة؟

اكتب إجاباتك، وابدأ بالفعل الذي اخترته. ثم عد إلى البطاقة في موعد المراجعة؛ فهناك ترى ما تغير وما يحتاج إلى تعديل.

الفصل الثامن والأربعون خاتمة الصبحه

رأينا يوسف في أول مسؤولياته الظاهرة، قبل أن يصير اسمه عنوان دولة. ورأيناه حين عاد أبو بكر إلى الصحراء واتسع ما في يده، وحين بدأ الاستقرار في مراكش، وحين تقدمت جيوشه إلى مدن المغرب. ثم اتجه النظر إلى البحر، وجاءت رسائل الأندلس تحمل سؤالاً لا يحتمل التأجيل طويلاً.

في الزلافة ظهر أثر الجمع والقرار وثبات الرجال. وبعدها ظهر أن النصر لا يغني عن تدبير ما يليه. كشفت لبيط خصومات الحلفاء وحاجة الجيش إلى الميرة، ثم صار يوسف من النجدة إلى الضم. واتصل بذلك إنجاز سياسي واسع ومحنة بشرية لا يصح إسقاطها من الذاكرة. حمل الكتاب الأمرين إلى نهايته، لأن سيرة الإنسان لا تستقيم إذا لم تحتمل ما يثقل على محبيه.

كان يمكن أن نختصره في يوم انتصار، لكننا كنا سنفقد الباني والمفاوض وصاحب العهد. وكان يمكن أن نملاً صمت الأخبار بطفولة متخيلة وخلوات لم يصفها راو، لكننا كنا سنبتعد عن الرجل كلما ازددنا وصفًا. لذلك وقفنا حيث يقف الشاهد، وتبعنا ما يسمح به إلى العمل والمعنى.

بقي من يوسف فعل لا يزال مفهوماً: رجل يأتيه نداء فيتيأ للمضي، وقائد يترك لرجاله نصيبهم من صناعة الظفر، وصاحب قدرة يقتصد في شأن نفسه، وحاكم ينظر في استمرار ما بناه بعد وفاته. وبقيت إلى جانب ذلك أسئلة عن حدود القوة وحقوق الخصم ومسؤولية من يجري الأمر باسمه. إن الوعي بهذه الأسئلة لا ينقص قيمة الفضيلة؛ بل يحفظها من أن تصبح عذراً لإهمال حق آخر.

ونحن نغلق الكتاب، نعود إلى المسافة الصغيرة التي نملكها في حياتنا. لا نملك أن نعيش عصر يوسف، ولكننا نملك أن نحسن معرفة ما نصنع، وأن نصدق في ما ننقل، وأن نحمل كلفة ما نعد به، وأن نراجع أنفسنا حين يتبين خطؤنا. هناك تبدأ ثمرة هذه الصحبة؛ في عمل حاضر يجد معناه، ثم يترك للناس ما ينفعهم بعد انقضاء الكلام.

المصادر والمراجع

تبين الحواشي مصادر الأخبار والنقول، وتفرّق بين النص المعين والنقل بواسطة، وتحفظ اختلاف الروايات المؤثر. اعتمدت النصوص الإلكترونية، مع مقابلة المواضع المستعملة من الحل الموشية بصور طبعة دار الرشاد. ولا تعني هذه المقابلة تحقيق أسانيد جميع الأخبار؛ فما لم يستقل دليل بترجيحه بقي منسوباً إلى راويه.

أصول الرواية

أبو عبيد البكري، المسالك والممالك. مواضع طرق الصحراء وسجلهاسة وأودغست وغانة وبدايات المرابطين. استعمل ترقيم الجزء الثاني في النص الإلكتروني، ومنه الصفحات 835-874.

عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب. أخبار الطوائف، واستنجد المعتمد، والزلاقة، ونكبة بني عباد، وانتقال الأندلس إلى المرابطين، والكتاب في دولة يوسف. الإحالة بعناوين الأخبار ومطلع النص لعدم اعتماد رقم صفحة لطبعة لم تقابل.

عز الدين ابن الأثير، الكامل في التاريخ. حوادث سنتي 479 و484هـ، مع أخبار إفريقية في الجزء السابق؛ ووصف يوسف في

حوادث سنة 500هـ من النص المباشر، ومن نقل ابن خلكان حيث نصت الحاشية على ذلك.

ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس. ترجمة يوسف بن تاشفين، الجزء السابع، ولا سيما الصفحات 112-125 بحسب النص الإلكتروني. ميز الكتاب نقل ابن خلكان عن كتاب المعرب غير المسمى مؤلفه من كلامه ونقله عن ابن الأثير.

ابن أبي زرع الفاسي، الأئیس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس. طبعة 1917، تفرغ ويكي مصدر المرتبط بصفحات النسخة. فرق بمقدار صفحة بين رقم الورقة الرقمية والصفحة المطبوعة في المواضع المستعملة؛ ثبتت الروابط المحددة في الحواشي.

الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، مؤلف مجهول، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة، الطبعة الأولى، 1399هـ/1979م. أخبار الجواز الثاني والثالث والرابع، وعهد علي والوصايا والوفاة. قوبلت المواضع المستعملة من أخبار الجواز والعهد والوصايا والوفاة بصور الصفحات، وصحت إحالاتها؛ وأبقيت فروق النسخ والتواريخ المؤثرة.

الذهبي، سير أعلام النبلاء. ترجمة «صاحب الغرب». استعمل في وصف يوسف وتقويم سيرته وخلاف الروايات في عمره وصلته بالخلافة العباسية.

ابن الأبار، الحلة السراء، ج2، ص125 بحسب النص الإلكتروني. خبر أبي عبد الرحمن بن طاهر، وما ورد فيه عن القادر بن ذي النون وبلنسية. استعمل في ضبط تاريخ استيلاء القمبيطور ومقارنة الرواية المنسوبة إلى ابن بسام.

ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة. موضع شعر ابن العسال في النص المباشر. أما الأخبار المطولة عن بلنسية وابن جحاف والقمبيطور فقد استعملت بنقل شكيب أرسلان عنها، وأظهر هذا الوسيط في الحواشي.

المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب. أخبار طليطلة وشعر ابن العسال، وما نقله عن ابن اللبانة والحميري في رسل ألفونسو إلى المعتمد. حفظ اختلاف الطريقين ولم تدمج تفاصيلهما في مشهد واحد.

ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج19، ص38 بحسب النص الإلكتروني. خبر ابن شرف وابن رشيق، ونسبة أبيات «ألقاب مملكة في غير موضعها» وسياقها.

ابن حزم، جمهرة أنساب العرب. موضع نقد النسب الحميري الذي ألحقه بعض النسابين بصنهاجة وملتونة.

كتب الجمع والدراسات والشواهد المساعدة

أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الجزء الثاني. أخبار أبي بكر وزينب ومراكش وتوزيع الولايات. يذكر الكتاب أنه جامع متأخر ولا يساويه بالشاهد المعاصر.

شكيب أرسلان، الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، الجزء الثالث، فصل بلنسية. استفيد من النصوص التاريخية التي نقلها عن ابن بسام والمقري، ومن رسائل وصف المدينة، مع التصريح بالنقل بواسطة.

محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، عصر المرابطين والموحدين، الصفحات 41-46 من الجزء الثالث بحسب النسخة الإلكترونية. استعمل عرضه لوثائق ابن العربي والغزالي والطروشني وأخبار أبي بكر بن يوسف وعهد علي؛ ولم تدع النسخة معاناة المخطوط الكثانية الذي وصفه.

المادة المعمارية المنشورة لدى الديوان الوطني للسياحة بالجزائر،
والمادة التعريفية بفنون المرابطين والموحدين لدى متحف

المتروبوليتان. استعملتا للفصل بين بدء جامع تلمسان وزخارفه
اللاحقة في عهد علي بن يوسف.

بطاقة فهرسية لدى Numista لدينار يوسف بن تاشفين،
استعملت لوصف نوع نقدي ووزنه المسجل؛ وليست فحْصاً لقطعة
في اليد أو إحصاءً لمالية الدولة.

الدراسة المنشورة بمركز سلف عن كتاب إحياء علوم الدين
وموقف فقهاء الغرب الإسلامي منه. الاستفادة المحددة منها في
نقل خبر ابن القطان عن تاريخ الإحراق في عهد علي، دون تبني
أحكام الدراسة العقدية أو التاريخية الأخرى.

مراجع المعاني التربوية

ابن تيمية، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فصل الموازنة بين
المصالح والمفاسد. استعمل لتقييد معيار التقويم، لا لإسناد حكم
خاص على يوسف إليه.

الخلال، الحث على التجارة والصناعة والعمل، الخبران 1-2، رواية
المروزي عن أحمد في العمل ونفع القراءة.

ابن القيم، الوابل الصيب من الكلم الطيب، صدر الكتاب، في شكر
النعمة واستعمالها في مرضاة الله.